

قاعدة في المحبة

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني

رحمه الله رحمة واسعة

ضبط نصه وخرج أحاديثه واعتنى به

محمد بن رياض الأحمد الأثري

عالم الكتب




قاعدة في المحبة



عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ ـ ١١، برقياً: نابعلبكي
تلفون: ٣١٥١٤٢ ـ ٨١٩٦٨٤ (٠١)
خليوي: ٠٣/٣٨١٨٣١
فاكس ٣١٥١٤٢ (٩٦١١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX: 11-8723, CABLE: NABAALBAKI
TEL.: 01-819684 / 315142
CELL. 03-381831, FAX: (9611) 315142
E. mail: alamko @ dm.net.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فهذه رسالة لطيفة جامعة في الحب والبغض، وبيان الممدوح في ذلك والمذموم، سطرتها يراعة شيخ الإسلام ومفتي الأنام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة - بأسلوبه الفريد، وعباراته الماتعة.

ولقد وفقني الله تعالى - وله سبحانه المنة والفضل - في ضبطها والتعليق عليها، وإخراجها للمسلمين في هذه الحلة القشيبة، راجياً من الله تعالى أن ينفعهم بها، وأن يبصرهم بهذا الدين القويم الذي فيه الهدى والنور والسعادة والفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة.

وختاماً أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرحم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة واسعة، ويعلي درجته في الجنة، ويجمعه وسائر علمائنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد

عفا الله عنه بمنه وكرمه



ترجمة
شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني
رحمه اللّٰه تعالى

ـ اسمه ونسبه:

هو: شيخ الإسلام الإمام الفقيه، المجتهد الحافظ، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم، بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية النميري الحرَّاني ثم الدمشقي.

وتيمية: يقال إنها أم جده محمد، وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها، ولهذا أطلق على هذه الأسرة «آل تيمية».

ـ مولده ونشأته:

ولد شيخ الإسلام رحمه الله بحران، يوم الاثنين العاشر، أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ.

وبعد أن هجم التتار على بلده وعاثوا فيها فسادًا، اضطرت عائلته إلى الرحيل عن حران، فسافر به والده مع إخوته إلى الشام فوصل دمشق سنة ٦٦٧هـ، واستقر بها.

وقد نشأ شيخ الإسلام في بيت علم، ودين، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره فقد كان جده الشيخ مجد الدين أبو البركات من كبار علماء الحنابلة، وفقهاء العصر، تفقه على يد عمه فخر الدين الخطيب. قال عنه شيخ الإسلام: «كان الشيخ جمال الدين ابن مالك يقول: ألين للشيخ المجد الفقه كما أُلين لداود الحديد» وقال أيضا: «كان جدنا عجبًا في سرد المتون وحفظ مذاهب الناس وإيرادها بلا كلفة» ا. هـ.

من أهم مصنفاته «المنتقى من أحاديث الأحكام» الذي شرحه الشوكاني رحمه الله في كتابه «نيل الأوطار»، ومن مؤلفاته «الأحكام الكبرى» في عدة مجلدات.

أما والده شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام فقد سمع من والده مجد الدين أبي البركات، ورحل في صغره إلى حلب وسمع هناك من عدد من المشايخ، قال عنه الذهبي رحمه الله: «قرأ المذهب حتى أتقنه على والده، وأفتى وصنف، وصار شيخ البلد بعد أبيه وخطيبه وحاكمه، وكان إمامًا محققًا لما ينقله، كثير الفوائد جيد المشاركة في العلوم، له يد طولى في الفرائض...».

وذكر ابن كثير أن له كرسيًّا للدراسة والتعليم والوعظ، وأنه تولى مشيخة دار الحديث السكرية، وبها سكنه، مات سنة ٦٨٢هـ.

وممن أشتهر بالعلم والعبادة والزهد من هذه الأسرة الكريمة إخوة الشيخ وهم ثلاثة:

أخوه: شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن، وأخوه لأمه: بدر الدين محمد.

أما والدة الشيخ فهي: ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية.

من هذا البيت المبارك، والأسرة الصالحة خرج شيخ الإسلام فنشأ وتربى في حجر والده، وبدأ في طلب العلم مبكرًا، وكانت علامات النجابة والفطنة تظهر عليه منذ حداثة سنه، ونعومة أظفاره، وساعد على ذلك أن بدا عليه النجابة منذ حداثة سنه، وذلك بأمور:

أولاً: الجد والاجتهاد والانصراف التام إلى طلب العلم وتحصيله، فكان لا يلهو لهو الصبيان، ولا يعبث عبثهم، قال البزار رحمه الله: «ولم يزل منذ إبان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد».

ثانيًا: رزقه الله الذاكرة الحادة، والعقل المتيقظ، والفكر المستقيم، والنبوغ المبكر، قال البزار رحمه الله: «خصه الله بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالبًا إلا ويبقى على خاطره، إما لفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه».

وذكر ابن عبد الهادي رحمه الله: «أن أحد علماء حلب قدم من دمشق وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصدًا لعلي أراه. فقال له خياط: هذه طريق كتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فأقعد عندنا، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهبًا إلى الكتَّاب. فجلس الشيخ الحلبي قليلًا، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي: فذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد ابن تيمية، فناداه الشيخ فجاء إليه، فناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي امسح هذا حتى أملي عليك شيئًا تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر حديثًا، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم دفعه إليه، وقال: أسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضًا كأحسن ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي امسح هذا، ففعل. فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال: أقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم يُر مثله. أو كما قال».

حفظ شيخ الإسلام رحمه الله القرآن في سنَّ مبكر ثم أكب على طلب العلم. فدرس على والده، وبعض مشايخ عصره، ولم يتجه إلى فن معين بل درس الحديث وسمع المسانيد، والكتب الستة، وبعض المعاجم، وأقبل على التفسير، وعلم الفقه والأصول، إضافة إلى علم اللغة.

قال ابن عبد الهادي رحمه الله: أقبل على الفقه وقرأ العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتب سيبويه حتى فهم النحو، وأقبل على التفسير إقبالًا كليًا حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه.

وقد جلس رحمه الله للإفتاء وعمره تسع عشرة سنة، وخَلَف والده في التدريس بدار الحديث السكرية وعمره اثنان وعشرون سنة بعد أن توفي والده سنة ٦٨٢هـ، وجلس الشيخ للتدريس في الثاني من شهر الله المحرم سنة ٦٨٣هـ، وقد حضر درسه الأول كبار علماء دمشق، يقول ابن كثير رحمه الله واصفًا هذا الدرس: «. . . . وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الغزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين ابن المرحل، وزين

الدين ابن المنجا الحنبلي، وكان درسًا هائلًا، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون، وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين. . .».

وأيضا في اليوم العاشر من شهر صفر من هذه السنة جلس للتفسير في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة، وقد استمر هذا الدرس سنين طويلة، وكان يحضره الجمع الغفير من الناس.

وقال الذهبي رحمه الله: «نشأ - يعني الشيخ تقي الدين - رحمه الله في تصون تام، وعفاف وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم. فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده - وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم - فدرس بعد بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعد صيته في العالم. . .».

هكذا بدأ شيخ الإسلام تقي الدين حياته العلمية حتى أصبح آية من آيات الله في الفهم وسعة الإطلاع، وقوة الحجة، وسرعة البديهة.

- بعض الصفات التي اتصف بها:

أ - صفاته الخَلقية:

وصفه الذهبي: بأنه كان أبيض، أسود الرأس واللحية قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها الحلم.

ب - صفاته الخُلقية:

١ - كرمه:

كان رحمه الله سخياً جوادًا، لا يرد سائلًا قط، ويجود بكل ما يستطيع، حتى لو يشاطره بعض لباسه الذي عليه، ومن طريف ما يروى في ذلك ما ذكره البزار رحمه الله قال: «حدثني الشيخ العالم الفاضل المقرىء أبو محمد عبد الله

ابن الشيخ الصالح المقرىء أحمد بن سعيد قال: كنت يومًا جالسًا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، فجاء إنسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجًا إلى ما يعتم به، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين، واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل، . . .».

وذكر البزار أيضًا قال: «حدثني من أثق به أن الشيخ رضي الله عنه كان مارًّا يومًا ببعض الأزقة، فدعا له بعض الفقراء، وعرف الشيخ حاجته، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه، فنزع ثوبًا من على جلده ودفعه إليه، وقال: بعه بما تيسر وأنفقه. واعتذر إليه من كونه لم يكن معه شيء من النفقة» أ هـ.

وما يروى عنه في هذا الباب كثير مما يدل على كمال مروءته وسخاء نفسه.

٢ ـ قوته وشجاعته:

لقد ضرب شيخ الإسلام أروع الأمثال في ميدان القوة والشجاعة ففي ميدان الجهاد بطل مغوار لا يشق له غبار، يتبين هذا جليًّا ما فعله ضد التتار ويأتي الكلام على شيء من ذلك.

إضافة إلى أنه كان ذا شخصية قوية، ونفس لا تهاب الصعاب، كان يقف أمام السلاطين والظلمة ينصحهم ويخوفهم ويحذرهم برباطة جأش يهابه كل من حضر، لا يخاف في الله لومة لائم.

من مواقفه المشهورة التي تترجم قوة شخصيته وتنبىء عن شجاعته: موقفه من «قازان» سلطان التتار ـ مع ما اشتهر عنهم من التسلط والظلم والبربرية ـ فقد ذهب إليه شيخ الإسلام مع مجموعة من تلامذته، وكلَّمه بشدة ومما قال له: «أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذن وقاضي وإمام وشيخ، على ما بلغنا، فغزوتنا وغزوت بلادنا على ماذا؟ . . . إلى أن قال: وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت» ولما قربوا الطعام، فأكلوا إلا شيخ الإسلام، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: «كيف آكل من طعام وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس».

وكان إذا حضر الجهاد مع المسلمين يشجعهم ويثبتهم، ويعدهم النصر، ويقوي عزائمهم حتى كأنه هو القائد وهو الأمير وهو السلطان، وما هو إلا واحد من الجند.

ولـم أر أمـثـال الـرجـال تـفـاوتـوا لـدى الـفـضـل حتـى عُـدَّ ألـف بـواحـد

قال عنه الذهبي رحمه الله: «وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال» أ هـ.

ومن مواقفه البطولية التي خلدها التاريخ عندما سار جيش التتار إلى الشام، ابتدر شيخ الإسلام وذهب مع البريد إلى مصر ودخل على السلطان، وخاطبه بقوة قائلًا له: «إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم» وهدده بأن أهل الشام سيقيمون لهم من يحميهم ويقوم بأمرهم، فأجابه السلطان إلى ما أراد.

وقد منّ الله تعالى عليه رحمه الله بقوة القلب وانشراح الصدر الشي الكثير الكثير.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منّا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه ـ وهو محبوس في القلعة ـ فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقيناً وطمأنينة. . .».

وقال خادمه إبراهيم بن أحمد الغياني رحمه الله: «. . . ثم بعد أيام جاء عند الشيخ ـ يعني ابن تيمية ـ شمس الدين بن سعد الدين الحراني وأخبره أنهم يسفرونه إلى الإسكندرية. وجاءت المشايخ التدامرة وأخبروه بذلك، وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك، فقال لهم: «أنا إن قتلت كانت لي الشهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت على صوف» فيئسوا منه وانصرفوا. . . ثم ذكر أنه لما ركب مع نائب السلطان متوجها إلى الإسكندرية فقال له إنسان: «يا سيدي هذا مقام الصبر» فقال له: «بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها» أ هـ.

٣ ـ زهده وتواضعه:

مع ما منح الله شيخ الإسلام رحمه الله من سعة العلم، وقوة الشخصية وعلوّ المكانة، مع هذا كله فقد كان في غاية التواضع، والإزراء على النفس، كان زاهدًا قانعًا بما في يده، لم يتطلع في يوم من الأيام إلى منصب أو جاه،

ولم تكن الدنيا في عينه تساوي شيئًا وقد رضي منها بالقليل، واكتفى بما يغنيه عن الناس، ويسد حاجته، وربما اكتفى بشيء من الخبز يأكله في الصباح وفي المساء.

قال البزار رحمه الله: «وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته، جبرًا لقلبه، وتقربًا بذلك إلى ربه...».

وقال أيضًا رحمه الله: «ما رأيناه يذكر شيئًا من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها، بل جعل همه وحديثه في طلب الآخرة، وما كان يقرّب إلى الله تعالى».

وقال أيضًا في وصف الشيخ رحمه الله: «ولقد اتفق كل من رآه ـ خصوصًا من أطال ملازمته ـ أنه ما رأى مثله في زهده في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهورًا بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد عن الشيخ الذي كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا، وأحرصهم على طلب الآخرة؟، لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية...».

ـ مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

تبوأ الشيخ مكانة علمية واسعة، فقد فاق أقرانه، إذ هو الإمام حقّاً، وشيخ الإسلام صدقًا، وهو البحر من أي جهة أتيته، لا تكدره الدلاء.

إمام وأي إمام، لقد طَبَّق اسمه الدنيا، وبلغت مؤلفاته ما بلغ الليل والنهار، وأصبح عَلَم المذهب السلفي، فكل من التزم المذهب الحق في باب العقائد قيل: هو على مذهب ابن تيمية، فهو إذًا مدرسة الأجيال تخرج منها فطاحل العلماء، والأئمة العظماء.

فإذا كان عصره يعج بالتيارات الفكرية المتباينة، ممثلاً في مذاهب عقدية منحرفة من جهمية، ومعتزلة، وأشاعرة... إلخ، إضافة إلى صوفية خيمت على العالم الإسلامي بسلوكيّاتها وأصولها الفاسدة، أضف إلى أن بضاعة الفلاسفة

والمناطقة رائجة، وسلعتهم نافقة، هذا مع ما كان المسلمون يتلقونه من حرب فكرية عاتية من الصليبية الحاقدة لا تقل خطرًا عن حروبهم العسكرية الشرسة.

وقد تصدى الشيخ لكل هؤلاء، وانبرى للرد عليهم، وتفنيد أقوالهم، وكان يعمل على جميع الجبهات، فلم يشغل مناقشة هؤلاء عن الرد على أولئك.

وكان إذا تكلم في فنٍّ حسبه السامع لا يحسن غيره، وظنه قد تخصص في هذا الجانب بل إن أصحاب المذاهب الأخرى يستفيدون منه علومًا في مذاهبهم كانوا يجهلونها وتخفى عليهم، حتى ذكر أنه ما تكلم في علم من العلوم سواء كان علوم الشرع أم من غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين إليه، وما ناظر أحدًا فانقطع معه.

قال أبو الفتح اليعمري رحمه الله ـ يصف نبوغ ابن تيمية وسعة علمه ـ: «إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه».

وقال عنه ابن العماد رحمه الله: «أحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والمقابلة وغير ذلك من العلوم، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم».

وقال الذهبي رحمه الله في معرض وصفه لشيخ الإسلام: «.... وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسَّر كتاب الله تعالى مدة سنينٍ من صدره في أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه، ومذاهب الصحابة والتابعين، فضلًا عن المذاهب الأربعة، فليس له فيه نظير. وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرًا...» وقال أيضًا: «كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأسا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرًا في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علمًا وزهدًا... إلى أن قال: وقرأ وحصل، وبرع في الحديث والفقه، وتأهل للتدريس والفتوى وهو

ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام: أصولها وفروعها ودقها وجلها، سوى علم القراءات، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأُبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سُمي المتكلمون فهو فردهم، وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يَقدم الفلاسفة فعلَّهم وتيَّسهم، وهتك أستارهم وكشف عوارهم؛ وله يد طولى في معرفته العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي. . . وقال: وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتاب والسنة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغتَرف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي. . .، وقال: فلو حُلِّفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم». أهـ.

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله ـ وقد سئل عن شيخ الإسلام بعد اجتماعه به، كيف رأيته؟ ـ فقال: «رأيت رجلًا سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء. . .».

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله: «وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلدًا لطيفًا في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر، وأحصيت ما كتبه وبيضه في يوم فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكل المسائل، وكان يكتب على سؤال الواحد مجلدًا».

وقال المزي رحمه الله في شيخ الإسلام رحمه الله: «ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه».

وقال ابن شيخ الحزاميين رحمه الله: «فوالله ثم والله ثم والله، لم ير تحت أديم السماء مثل شيخ الإسلام علمًا وعملًا وحالًا وخلقًا واتباعًا وكرمًا، وحلمًا في حق نفسه، وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته».

وقال ابن القيم رحمه الله في ترجمته لشيخ الإسلام رحمه الله: «شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصرة الدين، الداعي إلى الله ورسوله، المجاهد في سبيله، الذي أضحك الله به من الدين ما كان عابسًا، وأحيا من

السنة ما كان دارسًا، والنور الذي أطلعه الله في ليل الشبهات، وكشف به غياهب الظلمات، وفتح به من القلوب مقفلها، وأزاح به عن النفوس عللها، فقمع به زيغ الزائغين، وشك الشاكّين، وانتحال المبطلين... وهو الشيخ العلامة الزاهد العابد، الخاشع الناسك، الحافظ المتبع، تقي الدين أبو العباس».

هذه لمحات يسيرة من ثناء الأئمة على الشيخ، من خلالها يمكن للقارىء معرفة ما مَيَّز الله هذا الرجل من وفرة العلم وسعة الإطلاع، وإلا ما ذكرته ما هو إلا قطرة من بحر، وذرة من رحل، وشيء يسير جدّاً، ومن أراد التوسع فليراجع بعض الكتب التي أفردت لهذا الشأن.

ويكفيه فخرًا واعتزازًا أن له الفضل ـ بعد الله ـ في تجديد ما اندرس من المنهج السلفي القائم على الكتاب والسنة، ودعوة الناس من جديد للعودة إلى هذا المعين الصافي والأخذ منه مباشرة، وقد كان لذلك الأثر الكبير على الأمة الإسلامية إلى يومنا هذا.

يقول عبد الله بن حامد رحمه الله في معرض كلامه على مدى تأثره بشيخ الإسلام، وأنه كان سببًا في هدايته للحق والصواب، بعد أن فتش في كتب أهل الكلام، متقدميهم، ومتأخريهم باحثًا عن النهج السوي، والطريق المستقيم، يقول رحمه الله: «وكنت قبل وقوفي على مباحث إمام الدنيا، رحمه الله، قد طالعت مصنفات المتقدمين، ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الإسلام، فرأيت فيها الزخارف والأباطيل والشكوك التي يأنف المسلم الضعيف في الدين أن تخطر بباله، فضلًا عن القوي في الدين، فكان يتعب قلبي ويحزنني ما يصير إليه الأعاظم، من المقالات السخيفة، والآراء الضعيفة التي لا يعتقد جوازها آحاد الأمة، وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الإمام أحمد على الخصوص، لاشتهارهم بمنصوصات إمامهم في أصول العقائد، فلا أجد عنهم ما يكفي، وكنت أراهم يتناقضون... إلى أن قال: فإذا جمعت بين أقاويل المعتزلة، والأشعرية، وحنابلة بغداد وكرامية خرسان، أرى إجماع هؤلاء المتكلمين في المسألة الواحدة على ما يخالف الدليل العقلي والنقلي، فيسوؤني ذلك وأظل أحزن حزنًا لا يعلم كنهه إلا الله... إلى أن قال: إلى أن قدَّر الله سبحانه وقوع تصنيف الإمام ـ إمام الدنيا ـ في يدي قبيل واقعته الأخيرة بقليل، فوجدت فيه ما يبهرني في موافقة فطرتي، لما فيه من عزو الحق إلى أئمة

السنة وسلف الأمة، مع مطابقة المعقول والمنقول، فبهتّ لذلك سرورًا بالحق، وفرحًا بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض...».

وقال شهاب الدين أحمد بن مري الحنبلي رحمه الله ـ أحد تلامذة الشيخ ـ في رسالة إلى تلاميذ الشيخ يحثهم فيها على جمع مؤلفاته، يقول في معرض ذلك: «فإن يسر الله تعالى وأعان على هذه الأمور العظيمة صارت إن شاء الله مؤلفات شيخنا ذخيرة صالحة للإسلام وأهله، وخزانة عظيمة لمن يؤلف منها وينقل، وينصر الطريقة السلفية على قواعده ويستخرج ويختصر إلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى...».

ـ مؤلفاته وآثاره:

كما سبق أن عرفنا فقد كان الشيخ أشبه ما يكون بموسوعة، له في كل فن نصيب، كان قلمه سيالًا، تميز بسرعة الكتابة ـ ولولا ذلك والله أعلم ـ لما خلف هذا التراث الضخم.

يقول أخوه أبو عبد الله رحمه الله: «وقد مَنَّ الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل» اهـ.

وقد ذكر ابن عبد الهادي رحمه الله أنه يكتب مجلدًا لطيفًا في يوم، بل إنه كتب «الحموية» في جلسة بين الظهر والعصر، وكتب «الواسطية» في قعدة بعد العصر.

وغالب ما كتب في «باب العقائد» إما ردٌّ على مبتدع، أو جواب لسؤال ورد عليه، كما ذكر ذلك هو عن نفسه في مناظرة الواسطية قال: «وأما الكتب، فما كتبت إلى أحد كتابًا ابتداء أدعوه به إلى شيء من ذلك، ولكنني كتبت أجوبة أجبت بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم».

وقد كان للفتن والمحن التي مر بها الشيخ أثر في ضياع بعض مصنفاته وكتبه فكثير ما يقول: قد كتبت في كذا وكذا ويسأل عن الشيء، فيقول: «كتبت في هذا»، فلا يدري أين هو؟ فيلتفت إلى أصحابه، ويقول: «ردوا خطي وأظهروه لينقل»، فمن حرصهم عليه لا يردونه، ومن عجزهم لا ينقلونه، فيذهب ولا يعرف اسمه.

وأيضًا من أسباب ضياع بعض كتبه: أنه يكتب في بعض الأحيان الجواب لمن سأله، فإن وجد من ينقل الجواب ويبيضه، وإلا أخذ السائل الجواب وذهب.

وذكر ابن عبد الهادي رحمه الله أن الشيخ لما حُبس تفرَّق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخَوَّفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه، وذهب كل أحد بما عنده وأخفاه، ولم يظهروا كتبه. فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه، أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تسرق كتبه أو تجحد، فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تحصيلها، فبدون هذا تتمزق الكتب والتصانيف.

ولهذه الأسباب وغيرها تعذر إحصاء مصنفاته، وتباينت أقوال العلماء في تعدادها.

يقول البزار رحمه الله: «وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحد، لأنها كثيرة جدًا، كبارًا وصغارًا، وهي منشورة في البلدان، فَقَلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه.

ثم ذكر أنه يمكن تعداد ما ينيف على المائتين من مؤلفاته.

أما تلميذه ابن القيم رحمه الله فقد ذكر نحوًا من سبع وثلاثين وثلاثمائة مصنف للشيخ، إجابة لمن سأل عن تعداد ما ألفه شيخ الإسلام، وذكر أن هذا هو الذي يحضره وأنه لم يستوعبها.

وقد قيل: إن تعداد مؤلفاته تصل إلى الألف، وقيل: خمسمائة، وقيل: ثلاثمائة، وقيل: غير ذلك، وكل يذكر ما وصل إليه.

ومن هذه المؤلفات:

١ ـ الاستقامة.

٢ ـ إقامة الدليل على بطلان التحليل.

٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم.

٤ ـ الإيمان.

٥ ـ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد.

٦ ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية.

٧ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

٨ ـ التدمرية.

٩ ـ التسعينية.

١٠ ـ تفسير سورة الإخلاص.

١١ ـ التوبة.

١٢ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

١٣ ـ حجاب المرأة ولباسها في الصلاة.

١٤ ـ الحسبة في الإسلام.

١٥ ـ حقيقة الصيام.

١٦ ـ الحموية.

١٧ ـ الرد على الأخنائي.

١٨ ـ الرد على البكري.

١٩ ـ الرسالة العرشية أو الإحاطة.

٢٠ ـ رسالة في السماع والرقص.

٢١ ـ رسالة في الصفات الاختيارية.

٢٢ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

٢٣ ـ السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية.

٢٤ ـ شرح حديث النزول.

٢٥ ـ شرح العقيدة الأصفهانية.

٢٦ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ.

٢٧ ـ الصفدية.

٢٨ ـ العبودية.

٢٩ ـ العقيدة الواسطية.

٣٠ ـ الفتاوى الكبرى المصرية.

٣١ ـ الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان.

٣٢ ـ الفرقان بين الحق والباطل.

٣٣ ـ قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق.

٣٤ ـ المراكشية.

٣٥ ـ المظالم المشتركة.

٣٦ ـ المسألة المصرية في القرآن.

٣٧ ـ النبوات.

٣٨ ـ نقض المنطق.

٣٩ ـ الوصية الصغرى.

٤٠ ـ الوصية الكبرى.

٤١ ـ الواسطة بين الحق والخلق.

٤٢ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.

٤٣ ـ درء تعارض العقل والنقل.

ـ شيوخه وتلاميذه:

لقد سمع ـ رحمه الله ـ وروى عن كثير من الشيوخ يصل عددهم إلى أكثر من مائتي شيخ، جاء ذكر بعضهم في «الأربعين لشيخ الإسلام».

ومن أشهرهم:

١ ـ زين الدين أحمد بن عبد الدائم المقدسي، توفي سنة ٦٦٨ هـ.

٢ ـ المجد بن عساكر محمد بن إسماعيل بن عثمان بن مظفر بن هبة الله الدمشقي، توفي سنة ٦٦٩ هـ.

٣ ـ عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي، توفي سنة ٦٧٠ هـ.

٤ ـ محمد بن علي الصابوني بن محمود بن أحمد المحمودي، توفي سنة ٦٧٠ هـ.

٥ ـ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

٦ ـ كمال الدين بن عبد العزيز بن عبد المنعم بن الخضر بن شبل الدمشقي، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

٧ ـ سيف الدين يحيى بن عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلي، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

٨ ـ أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحداد الحنبلي، توفي سنة ٦٧٨هـ.

٩ ـ أبو بكر بن عمر بن يونس المزي الحنفي، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

١٠ ـ عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

١١ ـ القاسم بن أبي بكر بن القاسم بن غنيمة الإربلي، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

١٢ ـ المقداد بن أبي القاسم، هبة الله القيسي، توفي سنة ٦٨١ هـ.

١٣ ـ عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، توفي سنة ٦٨٢ هـ.

١٤ ـ محمد بن أبي بكر العامري الدمشقي، توفي سنة ٦٨٤ هـ.

١٥ ـ محمد بن عامر بن أبي بكر الصالحي، توفي سنة ٦٨٤ هـ.

١٦ ـ أحمد بن شيبان بن حيدرة الشيباني الصالحي العطار، توفي سنة ٦٨٥ هـ.

١٧ ـ الجمال أحمد بن أحمد بن أبي بكر الحموي، توفي سنة ٦٨٧ هـ.

١٨ ـ يوسف بن يعقوب المجاور، توفي سنة ٦٩٠ هـ.

أما تلاميذه، فشيخ الإسلام ليس إلا مدرسة تخرج منها علماء أفذاذ، وجهابذة حفاظ، لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن أشهرهم:

١ - أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، توفي سنة ٧١١ هـ.

٢ - علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي الإسكندراني الدمشقي، توفي سنة ٧١٦هـ.

٣ - محمد بن سعد بن عبد الأحد الحراني الدمشقي، توفي سنة ٧٢٣ هـ.

٤ - محمد بن المنجا التنوخي الدمشقي، توفي سنة ٧٢٤ هـ.

٥ - عبد الله بن موسى الجزري، توفي سنة ٧٢٥ هـ.

٦ - أبو بكر بن شرف بن محصن بن معن بن عمار الصالحي، توفي سنة ٧٢٨ هـ.

٧ - عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الصالحي، توفي سنة ٧٣٧ هـ.

٨ - عبادة بن عبد الغني بن عبادة الحراني الدمشقي، توفي سنة ٧٣٨ هـ.

٩ - محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي، توفي سنة ٧٤٤ هـ.

١٠ - بهاء الدين محمود بن علي بن عبد الولي بن خولان البعلي، توفي سنة ٧٤٤هـ.

١١ - محمد بن عثمان الذهبي الشافعي، توفي سنة ٧٤٨ هـ.

١٢ - عمر بن سعد الله بن عبد الأحد الحراني الدمشقي، توفي سنة ٧٤٩ هـ.

١٣ - محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، توفي سنة ٧٥١ هـ.

١٤ - أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي، توفي سنة ٧٦٢ هـ.

١٥ - محمد بن مفلح بن محمد المقدسي الحنبلي، توفي سنة ٧٦٣ هـ.

١٦ - أحمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، توفي سنة ٧٧١ هـ.

١٧ - إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، توفي سنة ٧٧٤ هـ.

١٨ - محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي، توفي سنة ٧٨٨ هـ.

ـ مواقفه الجهادية:

لم يكن شيخ الإسلام عالمًا يصدر الفتاوى، ويؤلف الكتب، ويجلس للطلاب في حلقات العلم فحسب، ولم يكن يعيش في معزل عن مجتمعه، بعيدًا عن واقعه، لا يعلم ما يدور حوله، بل عايشه بقلبه وقالبه؛ وإذا قضى حياته مجاهدًا بقلمه ولسانه، فقد كان من حملة السيف، وأبطال المعارك، ترجم علمه بعمله، وقوله بفعله، ولنأخذ نموذجًا وموقفًا من مواقفه الجهادية التي خاض غمارها وشق غبارها، ومن خلالها يمكن أن نستشف ما كان يتمتع به هذا الرجل من روح جهادية، خلدت اسمه ورفعت شأنه.

عاش شيخ الإسلام عصرًا محمومًا يعج بالفتن والقلاقل كانت الأمة الإسلامية فيه مليئة بالأحداث الجسام والمصائب المتلاحقة، تعيش تمزقًا لم يسبق له مثيل، فما كادت الحملات الصليبية تنتهي، إلا وفجعت أمة الإسلام بالجيش التتري الغاشم يجتاح العالم الإسلامي، ويأتي على الرطب واليابس، وأصبحت ممالك المسلمين تتساقط في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، وهم يعيثون فيها خرابًا، سلبًا ونهبًا، وأسرًا وقتلًا، حتى أتوا على حاضرة العالم الإسلامي «بغداد» وطوقوها عام ٦٥٦هـ وسقطت في أيدهم بعد أن قتلوا الخليفة العباسي «المستعصم» وما صاحب ذلك من سفك الدماء ودمار شامل لم يعرف التاريخ له نظيرًا.

وبهذا أصبح شبح التتار يثير الرعب في نفوس المسلمين وترتعد له القلوب.

وفي رجب سنة ٧٠٢هـ شاعت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فأصاب الناس ذعر وهلع وخوف شديد، وبدأوا في الخروج إلى الديار المصرية، وهنا يبرز أثر الشيخ فيقف ويهدىء الناس ويطمئنهم ويعدهم النصر، ويحثهم على الجهاد، ويأمرهم بالصبر والمصابرة ويكثر من الابتهال إلى الله والتضرع إليه.

وفي هذه الأثناء سار إلى السلطان وحثه على قتال التتار فأجابه إلى ذلك، وكان يحلف للأمراء والناس أنهم لمنصورون، فيقول له الأمراء قل: إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، وكان يتلو بعض الآيات في ذلك.

وقد حصل عند الناس شبهة، وتردد في قتالهم، على أي شيء يقاتلون! فإن الظاهر منهم هو الإسلام، فسارع شيخ الإسلام وأزال هذه الشبهة وأوضح للناس أنهم من قبيل الخوارج الذين قاتلهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقال لهم بكل

قوة وعزيمة: «إذا رأيتموني من ذلك الجانب ـ أي في جانب التتار ـ وعلى رأسي مصحف فاقتلوني» وبهذا زال ما وجد لدى بعض الناس وقويت عزائمهم.

وطلب منه السلطان أن يقف معه في المعركة، فقال له الشيخ: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن مع جيش الشام لا نقف إلا معهم».

وأفتى للناس بالفطر مدة قتالهم، وليكن هذا أقبل للنفوس أوضح هذا عمليًا، فكان يدور على الأمراء والجند، ويأكل من شيء معه في يده، ويقول: «إن الفطر أقوى لكم» ويتأول فعل النبي ﷺ في غزوة الفتح حيث أصبح مفطرًا.

وابتدأت المعركة، وكانت الدائرة في النهاية للمسلمين، وأعز الله جنده، وكان لشيخ الإسلام فيها أعظم المواقف، وهي ما عرفت في التاريخ باسم «معركة شقحب».

يقول ابن عبد الهادي رحمه الله في ذكر بعض مواقف الشيخ البطولية في هذه معركة: «ولقد أخبرني أمير من أمراء الشاميين ذو دين متين، وصدق لهجة معروف في الدولة قال: قال لي الشيخ ـ يعني شيخ الإسلام ـ يوم اللقاء، وقد تراءى الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت. قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم.

ثم قلت له: يا سيدي. هذا موقف الموت، وهذا العدو، وقد أقبل تحت هذه الغَبَر. فدونك وما تريد... إلى أن قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر... قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما، تحريضًا على القتال، وتخويفًا للناس من الفرار».

وبهذا تبوأ ابن تيمية منزلة جهادية لا يستهان بها، وكان له الأثر الواضح في ميدان المعارك تنبىء عن هذا الإمام بأنه ليس إمام قلم فقط بل إمام قلم وسيف، وإنه رجل المواقف.

ـ محنته ووفاته ـ رحمه الله:

إن هذه الشهرة الكبيرة والمنزلة العالية التي حظي بها الشيخ، وذياع صيته في كل مكان بين الخاصة والعامة أثارت الضغائن، وحركت أصحاب النفوس الضعيفة، لإيذائه، وتأليب الحكام عليه، وإلصاق التهم به، حسدًا من عند أنفسهم،

وهذه سنة جارية، أن من لمع نجمه وبرز اسمه كثر حاسديه، والناقمين عليه.

لقد سجن الشيخ أكثر من مرة، وأوذي وأمتحن ولكن هذا لا يزيده إلا قوة في الحق وصلابة في الدين.

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة ظفر خصوم الشيخ بفتوى أفتى بها قبل سنوات في مسألة «شد الرحال إلى القبور»، وقد نقل أعداء الشيخ هذه الفتوى محرفة بعد أن زادوا فيها ونقصوا وزعم أولئك أن الشيخ ينتقص جناب الأنبياء والأولياء، ونشروها بين العامة ليوغروا صدورهم عليه، ولم يكتفوا بذلك، بل أرسلوا إلى السلطان آنذاك ـ الناصر ـ بذلك وحرضوا عليه.

وفي عصر يوم الاثنين السادس من شهر شعبان في نفس السنة أعتقل الشيخ ـ رحمة الله ـ بعد أن ورد مرسوم سلطاني بذلك بقلعة دمشق، وأقام معه أخوه زين الدين ليخدمه.

لقد تقبل الشيخ هذا الخبر بسعادة ورحابة صدر، وقال بكل عزة وأنفة وإيمان ويقين: «أنا كنت منتظرًا ذلك وهذا فيه خير عظيم» وقال: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخبر».

ولما دخل القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

لم يكن الشيخ أول من دخل السجن بل سبقه إلى هذا الطريق العلماء والأئمة، وقبلهم الأنبياء والرسل.

وهو لمثل هؤلاء كالنار للذهب، لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء ولهذا قال الشيخ كلمته المشهورة: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنّا رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وقد كان هذا الامتحان والإيذاء للشيخ من أسباب دعوته وعلمه، وقال في أحد رسائله: «ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق...».

وضيق على الشيخ في سجنه شيئًا فشيئًا، ومنع دخول التلاميذ عليه، ثم صدر مرسوم بإخراج جميع أدوات الكتابة من عنده منعًا له من التأليف، وبعد هذا تفرغ تفرغًا تامًّا للعبادة والخلوة بربه، وكان يكثر من قراءة القرآن والتضرع إلى الله.

وقبل وفاته ببضع وعشرين يوماً ألَمَّ به بعض المرض، فبقي على هذه الحالة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في ليلة الاثنين لعشر بقين من ذي العقدة لسنة ثمان وعشرين وسبع ومائة ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

وقد فوجىء الناس بهذا الخبر، وانزعجوا لذلك انزعاجًا كبيرًا، وحضروا زرافات وفردانًا للقلعة حيث كان موجودًا، وهالهم الخطب، وأغلقت المتاجر؛ وذكر أخوه زين الدين ـ الذي كان يصحبه حيث كان يصحبه في سجنه ـ أنه كان يقرأ هو وأخوه القرآن في داخل السجن، وأن آخر ما انتهى إليه الشيخ قبيل وفاته قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

وغسّل شيخ الإسلام وكفن وصلي عليه في الجامع الأموي، وقد حضر جنازته جمّ غفير من الناس، حتى وقفوا مرصوصين رصًا في داخل الجامع لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة لكثرتهم، وذكر ابن كثير أنه لم يتخلف عن حضورها أحد من أهل العلم إلا ثلاثة نفر وهم: ابن جملة، والصدر، والقفجاقي، وذكر أن هؤلاء اشتهروا بعداوة الشيخ، فاختفوا خوفًا على أنفسهم من الناس، وقد صلي عليه الظهر، ولم يدفن إلا قرب العصر لكثرة الزحام، ودفن في مقبرة الصوفية إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله.

ورحم الله الإمام أحمد حيث قال: «قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز» قال البرزالي رحمه الله بعد إيراد هذا الأثر: «ولا شك أن جنازة أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له، وأن الدولة كانت تحبه، والشيخ تقي الدين ابن تيمية توفي ببلده دمشق وأهلها لا يعاشرون أهل بغداد حينئذ كثرة، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعًا لو جمعهم سلطان قاهر، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوا في جنازته، وانتهوا إليها، هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوسًا من جهة السلطان...».

وقد رؤيت له منامات طيبة، ورثي بمراثي كثيرة من علماء عصره، وممن بعدهم.

ومن ذلك قول الذهبي رحمه الله:

يا موت خذ من أردت أو فدع	محوت رسم العلوم والورع
أخذت شيخ الإسلام وانفصمت	عرى التقى واشتفى أولو البدع
غيّبت بحراً مفسراً جبلاً	حبراً تقيّاً مجانب الشبع
فإن يحدث فمسلم ثقة	وإن يناظر فصاحب اللمع
إن يخض نحو سيبويه يفُه	بكل معنى في الفن مخترع
وصار عالي الإسناد حافظة	كشعبة أو سعيد الضبعي
والفقه فيه فكان مجتهداً	وذا اجتهاد عار من الجزع
وجوده الحاتمي مشتهر	وزهده القادري في الطبع
أسكنه الله في الجنان ولا	زال علينا في أجمل الخلع
مع مالك والإمام أحمد والنعـ	ـمان والشافعي والنخعي
مضى ابن تيمية وموعده	مع خصمه يوم نفخة الفزع

فرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة واسعة، ورفع درجته في المهديين وجزاه عن دعوته وجهاده وصبره أحسن ما جزى به عباده المخلصين، وجمعنا به في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا[1].

---

(١) مصادر الترجمة:
- التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار «دفاعاً عن ابن تيمية» لعماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي، تحقيق: علي حسن عبد الحميد.
- «ناحية من حياة شيخ الإسلام بن تيمية» لخادمه: إبراهيم بن أحمد الغياني، تحقيق: محب الدين الخطيب.
- «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» للبزار.
- «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن القيم.

- «قطعة من مكتوب الشيخ شهاب الدين أحمد بن مري الحنبلي - أحد تلامذة شيخ الإسلام - إلى حنابلة دمشق..» تحقيق: محمد الشيباني.
- «الوافي بالوفيات» للصفدي (٧/ ١٥ - ٣٣).
- «فوات الوفيات» للكتبي (١/ ٧٤ - ٨٠).
- «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٣٥ - ١٤٠).
- «دول الإسلام» للذهبي (ص ٤٢٠).
- «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٩٦ - ١٤٩٨).
- «ذيول العبر» (٨٤).
- «معجم الشيوخ» للذهبي (١/ ٥٦ - ٥٧).
- «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٣٨٧ - ٤٠٨).
- «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي.
- «رسالة قصيرة في فضل شيخ الإسلام ابن تيمية ومحبة أهل العلم له» لعبد الله بن حامد. تحقيق: محمد الشيباني.
- «الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٥٤ - ١٧٠).
- «تقريظ للحافظ ابن حجر على الرد الوافر لابن ناصر» تحقيق: محمد الشيباني.
- «المنهل الصافي» لجمال الدين أبي المحاسن (١/ ٣٥٨ - ٣٦٢).
- «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص ٥٢٠ - ٥٢١).
- «شذرات الذهب» (٦/ ٨٠ - ٨٦).
- «الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية» لمرعي بن يوسف الحنبلي.
- «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية» لمرعي بن يوسف الحنبلي.
- «البدر الطالع» للشوكاني (١/ ٦٣ - ٧٢).
- «القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي» لصفي الدين الحنفي.
- «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للألوسي.
- «الفتح المبين في طبقات الأصوليين» للمراغي (٢/ ١٣٤ - ١٣٧).
- «معجم المؤلفين» لعمر كحالة (١/ ٢٦١).
- «الأعلام» للزركلي (١/ ١٤٤).
- «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» لمحمد بهجة البيطار.
- «باعث النهضة الإسلامية، ابن تيمية السلفي» لمحمد خليل هراس.
- «ابن تيمية المفترى عليه» لسليم الهلالي.
- «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» لمحمد الشيباني.

قاعدة في المحبة

بسم الله الرحمن الرحيم وعلى الله توكلي

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد، فهذه قاعدة عظيمة في المحبة وما يتعلق بها، من جمع الإمام العلاَّمة، شيخ الإسلام، بركة الأنام، بقية السلف الكرام، أبي العباس أحمد، ابن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم، ابن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام، ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه.

قال رضي الله عنه: فصل في الحب و البغض، والمحمود من ذلك والمذموم، وأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه، كما أن البغض والكراهة مانع وصاد لكل ما انعقد بسببه ومادته، فهو أصل كل ترك، إذا فسر الترك بالأمر الوجودي، كما يفسره بذلك أكثر أهل النظر.

وأما إذا عني بالترك مجرد عدم الفعل، فعدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة و غيرهما.

فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة، حتى دفعه للأمور التي

يكرهها ويبغضها، هو لما في ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع، فيقال: شفي صدره وقلبه، والشفاء والعافية بمحبوب.

والمحبة والإرادة تكون إما بواسطة وإما بغير واسطة، مثل فعله للأشياء التي يكرهها، كشرب الدواء والمكروه، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره، ونحو ذلك.

فإن هذه الأمور، وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه، فإنما يفعل أيضاً لمحبة وإرادة، وإن لم تكن المحبة لنفسها، بل المحبة لملازمها، فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء، ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠]، فلا يترك الحي ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة، كما يفعل ما يكرهه لما محبّته أقوى من كراهة ذلك، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوى من محبة ذلك.

ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغض والكراهة وعلة لها، ولازماً مستلزماً لها من غير علة.

وفعل البغض في العالم إنما هو لمنافاة المحبوب، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض، بخلاف الحب للشيء، فإنه قد يكون لنفسه، لا لأجل منافاته للبغض، وبغض الإنسان وغضبه مما يضاد وجود محبوبه، ومانع ومستلزم لا يكره عليه، ونجد قوة البغض للنافي أشد وأحوط.

ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وكان: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[(1)].

فالمحبة والإرادة أصل في وجود البغض والكراهة، والأصل في زوال

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٦٨١) والبغوي في شرح السنة برقم (٣٤٦٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
وأخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٥٢١) وأحمد في المسند (٣/٤٣٨ ـ ٤٤٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٩١٥).

البغيض المكروه، فلا يوجد البغض إلا لمحبة، ولا يزول البغيض إلا لمحبة.

فالمحبة أصل كل أمر موجود، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود، لكنه مانع من وجود ضده، فهو أصل كل موجود من بغيض ومانع ولوازمهما.

وهذا القدر الذي ذكرناه من أن المحبة والإرادة أصل كل حركة في العالم، فقد بيّنا في القواعد وغيرها أن هذا يندرج فيه كل حركة وعمل، فإن ما في الأجسام من حركة طبعية فإنما أصلها السكون، فإنه إذا خرجت عن مستقرها كانت بطبعها تطلب مستقرها، وما فيها من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة.

والحركات: إما إرادية، وإما طبعية، وإما قسرية. لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهي الإرادية، وإن لم يكن له شعور فإن كانت على وفق طبع المتحرك فهي الطبعية، وإن كانت على خلاف ذلك فهي القسرية.

وبيّنا أن ما في السمٰوات والأرض، وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم، وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك، فإنما هو بملائكة الله تعالى الموكَّلة بالسمٰوات والأرض، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات: ٤]، وكما دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وتوكُّلهم بأصناف المخلوقات.

ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل كم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٤ ـ ٦٥].

وإذا كان كذلك فجميع تلك المحبات والإرادات، والأفعال والحركات، هي عبادة لله رب الأرض والسمٰوات، كما قد بيناه في غير هذا الموضع.

وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها، وخلق خلقه لأجلها، هي ما في عبادته وحده لا شريك له، إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل.

والمحبة لما كانت جنساً لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به، مثل العبادة والإنابة ونحوهما؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، وكذلك الإنابة.

وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة، كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة، بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، وعبادة إلٰه آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه، الذي لا يبقى في العذاب إلا أهله.

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له، لا يبقى منهم في العذاب أحد، والذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه، وعبدوا غيره، هم أهل الشرك، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن هذه المحبات ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص أهل النوعين.

وأصل دعوة جميع المرسلين، صلى الله عليهم وسلم، قولهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وعلى ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين، كما قال خاتم الرسل ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(١). قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٥٦، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤، =

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**» وفي رواية في الصحيح: «**لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يلقى في النار**»[١].

وفي الصحيح عن أنس أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٢].

وفي صحيح البخاري أن عمر قال: يا رسول الله: والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال: فوالذي بعثك بالحق لأنت أحب إليَّ من نفسي. قال: «**الآن يا عمر**»[٣].

ولهذا ورد في فضل هذه الكلمة: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله» من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره، وهي أفضل الكلام، وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات، كالحديث الذي في السنن: «**أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله**»[٤].

= ٧٢٨٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٠) وأبو داود في سننه برقم (١٥٥٦) والترمذي في سننه برقم (٢٦٠٧) والنسائي في سننه (٦/ ٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١) ومسلم في صحيحه برقم (٤٣) والترمذي في سننه برقم (٢٦٢٤) والنسائي في سننه (٨/ ٩٤ ـ ٩٥) وابن ماجه في سننه برقم (٤٠٣٣) وأحمد في المسند (٣/ ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١٧٢، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥) والبغوي في شرح السنة برقم (٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٥) ومسلم في صحيحه برقم (٤٤) والنسائي في سننه (٨/ ١١٤ ـ ١١٥) وابن ماجه في سننه برقم (٦٧) وأحمد في المسند (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٧٨) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٦٩٤، ٦٢٦٤، ٦٦٣٢) وأبو داود في سننه برقم (٢٩٤٢) وأحمد في المسند (٤/ ٢٣٣) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٣).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٣٨٣) وابن ماجه في سننه برقم (٣٨٠٠) والنسائي =

والآية المتضمنة لها أعظم آية في القرآن، كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأُبي بن كعب: «**يا أبا المنذر: أتدري أي آية في كتاب الله أعظم؟**» قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: فضرب بيده صدري، وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»[1].

وإذا كانت كل حركة فأصلها الحب والإرادة من محبوب مراد لنفسه، لا يحب لغيره، إذ لو كان كل شيء محبوباً لغيره لزم الدور أو التسلسل، والشيء قد يحب من وجه دون وجه، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الإلٰهية إلا له، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

والإلٰهية المذكورة في كتاب الله هي العبادة والتألُّه، ومن لوازم ذلك أن يكون هو الرب الخالق، وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هي نفس الربوبية، وأن ما ذكر في القرآن من نفى إلٰه آخر، والأمثال المضروبة البيّنة فالمقصود به نفي رب يشركه في خلق العالم، كما هو عادتهم في كتب الكلام - فهذا قصور وتقصير منهم في فهم القرآن، وما فيه من الحجج والأمثال أُتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية، فاعتقدوا أن المقصودين واحد، وليس كذلك، بل القرآن ينفي أن يعبد غير الله، أو أن يتخذه إلٰهاً فيحبه ويخضع له محبة الإلٰه وخضوعه، كما بيَّنت ذلك عامة آيات القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

ومن المعلوم أن كل حي فله إرادة وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى، كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولم

= في عمل اليوم والليلة برقم (٨٣١) والبغوي في شرح السنة برقم (١٢٦٩) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٩٧).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٨١٠) وأبو داود في سننه برقم (١٤٦٠) وأحمد في المسند (٥/ ١٤١ - ١٤٢) والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٠٣).

يقل: لعدمتا، إذ هو قادر على أن يبقيها على وجهة الفساد، لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له، فإن صلاح الحي إنما هو صلاح مقصوده ومراده، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها.

ولهذا كان من أجمع الكلام وأبلغه قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1]، وهذا يعم كل عمل وكل نيّة.

فكل عمل في العالم هو بحسب نية صاحبه، وليس للعامل إلا ما نواه وقصده وأحبه وأراده بعمله، ليس في ذلك تخصيص ولا تقييد، كما يظنه طوائف من الناس، حيث يحسبون أن النية المراد به النية الشرعية المأمور بها، فيحتاجون أن يحصروا الأعمال بالأعمال الشرعية، فإن النية موجودة لكل متحرك، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أصدق الأسماء الحارث وهمام**»[2]، فالحارث هو العامل الكاسب، والهمام هو القاصد المريد، وكل إنسان متحرك بإرادته حارث همام.

كما بينا أن المحبة والإرادة أصل كل عمل، فكل عمل في العالم فعن إرادة ومحبة صدر.

ولهذا كانت المحبة والإرادة منقسمة إلى محبوب لله وغير محبوب، كما أن العمل والحركة منقسم كذلك.

وإذا كان كذلك فالمحبة لها آثار وتوابع ـ سواء كانت صالحة محمودة نافعة أو كانت غير ذلك ـ لها وجد وحلاوة وذوق ووصال وصدود، ولها سرور وحزن وبكاء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٩٠٧) وأبو داود في سننه برقم (٢٢٠١) والترمذي في سننه برقم (١٦٤٧) والنسائي في سننه (١/ ٥٨ ـ ٥٩) وابن ماجه في سننه برقم (٤٢٢٧) وأحمد في المسند (١/ ٢٥ ـ ٤٣) والبغوي في شرح السنة برقم (١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٥٠) والنسائي في سننه (٦/ ٢١٨) وأحمد في المسند (٤/ ٣٤٥) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٨١٤) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٤٠).

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة، وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه، وهو السعادة.

والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره، وهو الشقاء.

ومعلوم أن الحي العالم لا يختار أن يحب ما يضره، لكن [يكون] ذلك عن جهل وظلم، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها، وذلك ظلم منها لها، وقد تكون جاهلة بحالها به، بأن تهوى الشيء وتحبه - بلا علم منها بما في محبته من المنفعة والمضرة - وتتبع هواها، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم.

وقد يكون عن اعتقاد فاسد، وهو حال من اتبع الظن وما تهوى نفسه، وكل ذلك من أمور الجاهلية، وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو من شبهة يشتبه بها الحق، وشهوة هي في الأصل محمودة إذا وضعت في محلها، كحال الذي يحب لقاء قريبه، فإن هذا محمود، وهو أصل صلة الرحم التي هي شجنة من الرحمن.

لكن إذا اتبع هواه، حتى خرج عن العدل بين ذوي القربى وغيرهم، كان هذا ظلماً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وكذلك الذي يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود، وبه يصلح حال بني آدم، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب، ولا وجدت الذرية، ولكن يجب العدل والقصد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٦ - ٧].

فإذا تجاوز حد العدل، وهو المشروع، صار ظالماً عادياً، بحسب ظلمه وعدوانه.

وقد ذكرنا في مواضع [أن] المشروع، والنافع، والصالح، والعدل، و الحق، والحسن: أسماء متكافئة، مسمَّاها واحد بالذات، وإن تنوعت صفاته، بمنزلة أسماء الله الحسنى، فأسماؤه تعالى، وأسماء كتابه، ودينه، ونبيه، مسمى

كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته، فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس، وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس، وكل ما كان صالحاً مشروعاً فهو حق وعدل وبالعكس.

ولكن الناس قد يدركون أحد النعتين فيستدلون به على وجود الآخر، مثل أن يعلم أن الله أمر بهذا الفعل وشرعه، فيعلم من هذا وجوب كونه طاعة لله ورسوله، وذلك الفعل بعينه يجب أن يكون عملاً صالحاً، وهو النافع، وأن يكون حقًّا وعدلاً، وهذا استدلال بالنص، وقد يعلم كون الشيء صالحاً أو عدلاً أو حسناً، ثم يستدل بذلك على كونه مشروعاً، وهو الاستدلال بالاستصلاح والاستحسان والقياس على كونه مشروعاً.

وهذه الطريقة فيها خطر عظيم، والغلط فيها كثير، لخفاء صفات الأعمال وأحوالها عنها، وأن العالم بذلك، كما ينبغي، ليس هو إلا رسول الله ﷺ.

فالاستدلال بالمصالح، التي قد يقال لها: المصالح المرسلة، هو الذي يرى الشيء مصلحة ليس في الشرع ما ينفيه، فيستدل بالمصلحة على أنه من الشريعة.

والاستحسان: أن يرى الشيء حسناً فيستدل بحسنه على أنه من الشرع.

والعدل: أن يرى للشيء نظيراً وشبيهاً، فيستدل على حكمه بحكم نظيره وشبيهه، وليس هذا موضع الكلام في ذلك.

لكن أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقاً للنصوص، كما قال مجاهد: أفضل العبادة الرأي الحسن، وهو اتباع السنة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية، ومسائل الأحكام العملية يستمونهم: أهل الأهواء، لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم.

ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع هواه بغير علم، ويذم من يتبع هواه بغير هدى من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾

[القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وكل من اتبع هواه [اتبعه] بغير علم، إذ لا علم بذلك إلا بهدى الله، الذي بعث الله به رسله، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ـ ١٢٤] ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه.

واتباع الهوى يكون في الحب والبغض، كقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]، فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، فهنا يكون اتّباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها. والحق هو العدل، واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتباع أهواء الخلق. وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]، فنهاه عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم.

وكذلك قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فقد نهاه عن اتباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب، وحذره أن يفتنوه عمَّا أنزل الله إليه من الحق، وذلك يتضمن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته، وكذا أهل الأهواء من هذه الأمة.

وقد بيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]، فقد أمره في هذه الآية باتباع الشريعة التي جعله عليها، ونهاه عن اتباع ما يخالفها، وهي أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل الأهواء، كما سمَّاهم السلف.

وقال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٤٨ ـ ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٦ ـ ١٧].

فذكر الذين أوتوا العلم، وهم الذين يعلمون أن ما أنزل إليه من ربه الحق، ويفقهون ما جاء به، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلاً، الذين اتبعوا

أهواءهم: يسألونهم ماذا قال الرسول آنفاً، وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة، بل يستشكل ذلك فلا يفقهه، أو قرأه متعارضاً متناقضاً، وهي صفة المنافقين.

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] زيادة الهدى، وهو ضد الطبع على قلوب أولئك، وآتاهم تقواهم، وهو ضد اتباع أولئك الأهواء.

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة، وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة، كان كل عمل لا يُراد به وجهه باطلاً، فأعمال الثقلين ـ الجن والإنس ـ منقسمة: منهم من يعبد الله ومنهم [من] لا يعبده، بل قد يجعل معه إلٰهاً آخر، وأما الملائكة فهم عابدون لله.

وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة، وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما، فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين، وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه، فإن هذا عام لجميع المخلوقات، حتى كفار بني آدم، فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره، وذلك بكلمات الله التي كان النبي ﷺ يستعيذ بها، فيقول: «**أعوذ بكلمات الله التامات، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**»(١)، وهذا من عموم ربوبيته وملكه.

وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام، حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك، وهم غالطون في

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٥٦).

هذا التخصيص شرعاً وعقلاً أيضاً.

فإن المعقول الذي لهم يعرِّفهم أن كل شيء وكل متحرك، وإن كان له مبدأ، فلا بدّ له من غاية ومنتهى ـ كما يقولون: له علتان: فاعلية وغائية، والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية، وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه [من جهة] العلة الغائية، وهذا غلط.

فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط، ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات، كما قد بيّنا هذا في غير هذا الموضع.

وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة، إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء، فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان: أحدهما: أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة؛ لا فاعلية ولا غائية؛ والثاني: أن ما كان فيها علة فله علة، سواء كان علة فاعلية أو غائية.

فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه، و هو رب العالمين، لا رب لشيء من الأشياء إلا هو، وهو إلٰه كل شيء، وهو في السماء إلٰه، وفي الأرض إلٰه، وهو الله في السمٰوات وفي الأرض، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، وما من إلٰه إلا الله، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلٰهيته سبحانه وتعالى، وهو الغاية المقصودة منها ولها.

وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه، وكثير من الناس [الذين لا يفعلونه طوعاً]، وهم الذين حق عليهم العذاب، ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتدبيرهم.

وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣].

وكذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۝١٥﴾ [الرعد: ١٥].

وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس، لأنه ذكر الطوع فقط، كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [الحج: ١٧]، فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن، فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص، لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، فإنهم كما قالوا: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضاً.

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠].

وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: ١]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣١٩٩، ٤٨٠٢، ٤٨٠٣، ٤٧٣٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٩) والترمذي في سننه برقم (٢١٨٦) وأحمد في المسند (٥/ ١٤٥، ١٥٨، ١٧٧) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٢٩٣).

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ١]
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الصف: ١]،
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ١]،
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٧ ـ ٣٨].

وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ

﴿ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٣].

وقال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨ ـ ١٩].

فأما كثير من الناس، وأهل الطبع المتفلسفة وغيرهم، فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ويأخذون بظاهر من القول؛ يرون ظاهر الحركات والأعمال التي للموجودات، ويرون بعض أسبابها القريبة، وبعض حكمها وغاياتها القريبة: أن ذلك هو العلة لها: فاعلاً وغاية، كما يذكرونه في تشريح الإنسان وأعضائه وحركاته الباطنة والظاهرة، وما يذكرونه من القوى التي في الأجسام، التي هي تكون بها الحركة، وما يذكرونه من كل شيء.

ومن ذلك ذكرهم الطبيعة التي في الإنسان، والقوة الجاذبة، والهاضمة الغاذية، والدافعة، والمولِّدة وغير ذلك، وأن الرئة تروِّح على القلب لفرط حرارته، وأن الدماغ أبرد من القلب، إلى غير ذلك من الأسباب والحكم التي فيها من شهود ما في مخلوقات الله من الأسباب والحكم ما هو عبرة لأولي الأبصار.

لكن يقع الغلط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرد قوة في جسم، ولا يشهدون الحكمة الغائية من هذه المخلوقات، وأن ذلك هو عبادة ربها سبحانه وتعالى.

وقد يعارضهم كلهم طوائف من أهل الكلام، فينكرون طبائع الموجودات وما فيها من القوى والأسباب، ويدفعون ما أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم، مما شهد به في كتابه من أنه خلق هذا بهذا، كقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].

وكلا الطائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التي هي عبادة ربها، وهذا هو المقصود الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، بل إنما يتنازعون

في فاعل هذه الأمور، وما يتعلق بتوحيد الربوبية، كما قدَّمناه، وأما شهادة غاية هذه الأمور، وما يتعلق بتوحيد الإلٰهية، فقد لا يهتدون له، ولهذا كان في طرقهم من الضلالات والجهالات ما هو مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول.

لكن أهل العلم في إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله ومشيئته وربوبيته أصح عقلاً وديناً، ومن أدخل في ذلك كل شيء، حتى أفعال الحيوان، فهو المصيب الموافق للسنة والعقل، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقرّرون أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه.

بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات، وكلاهما باطل، كما بُيِّن في غير هذا الموضع.

ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا في الحركات التي بين السماء والأرض، مثل حركة الرياح والسحاب والمطر وحدوث المطر، من الهواء الذي بين السماء والأرض تارة، ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة، كما ذكر ذلك أيضاً غير واحد من السلف، وهو حق مشهود بالأبصار، كما يخلق الولد في بطن أمه من المنيّ، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى، فشهدوا بعض الأسباب المرئية، وجهلوا أكثر الأسباب، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله، وعمّا جاء في ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له، الذي هو غاية حكمته.

فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض، كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور.

ومعلوم أن المنيّ جسم صغير مشابه لهذا الذي في الحيوان من الأعضاء المكسوَّة والمتنوّعة في أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها، هل يقول عاقل: إن هذا مضافٌ إلى عرض وصفه؟ حالٌّ في جسم صغير؟ أو يضاف هذا إلىٰ ذلك الجسم الصغير؟ هذا من أفسد الأمور في بديهة العقل.

ومعلوم أنه لا نسبه إلى خلق هذا من هذا، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التي يصنعونها من المداد، مثل الكتابة بالمداد، ونسيج الثياب من الغزل، وصنعة الأطعمة والبنيان من موادها، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها،

وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعاً يستجهلونه ويستحمقونه، فالذي يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها، أو ما في مادتها من الطبع، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر؟!

وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار، هو كذلك إضافة الزلزلة إلى احتقان البخار، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب، إلى غير ذلك من الأسباب التي ضلوا فيها ضلالاً مبيناً، حيث جعلوها هي العلة التامة فاعلاً، ولم يعرفوا الغاية، فجهلوا الوضعين، ونازعهم طوائف من الناس فيما يوجد من الأسباب والقوى التي في الطباع، وذلك أيضاً جهل.

وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة، وأعظمها في الحق محبة الله وإرادته بعبادته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتخذ الناس من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلاً وشريكاً ـ عُلم أن المحبة والإرادة أصل كل دين، سواء كان ديناً صالحاً أو ديناً فاسداً، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلق، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقاً، بخلاف الطاعة مرة واحدة، ولهذا فسّر الدين بالعادة والخُلُق، ويفسر الخلق بالدين أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قال ابن عباس: على دين عظيم، وذكره عنه سفيان بن عيينة، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه.

وكذلك يفسر بالعادة، كما قال الشاعر:

أهـــذا ديـــنـــه أبـــداً وديـــني؟

ومنه «الدَّيدان». يقال: هذا ديدنه، أي عادته اللازمة، فإن «ديدن» من دان، بمنزلة صلصل من: صل، وكبكب من: كبَّ، هو تضعيف له، والمضعف قد يكون مشدداً، وقد يكون حرف لين، وهم يعاقبون في كلامهم كثيراً بين الحرف المشدد وحرف المثل، كما يقال: تقضّي البازي وتقضّض، ويقال: تسرَّر وتسرَّى.

ودان: يكون من الأعلى القاهر، ويكون من المطيع. يقال: دنته فدان، أي: قهرته فذل. كما قال:

هو دان الرِّباب إذ كرهوا الدين، دراكاً بعزة وصيال

ويقال في الأعلى: «كما تدين تدان»[(1)]. وأما دين المطيع فيستعمل متعدياً ودائماً ولازماً، يقال: دنت الله، ودنت لله، ويقال: فلان لا يدين الله ديناً، ولا يدين لله، لأن فيه معنى الطاعة والعبادة ومعنى الذل، فإذا قيل: دان الله فهو كقولك: أطاع الله، وأحبه، وإذا قيل: دان لله، فهو كقولك: ذل لله، وخشع لله.

وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل، وهكذا الدين الذي يدين به الناس في الباطن والظاهر لا بد فيه من الحب والخضوع، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم، فإنها قد تكون خضوعاً ظاهراً فقط.

والله سبحانه وتعالى سمَّى يوم القيامة يوم الدِّين، كما قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف: «يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا»، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم.

فلهذا من قال: هو يوم الحساب ويوم الجزاء، فقد ذكر بعض صفات الدين، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾ [الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧]، أي: مقهورين، ومدبَّرين، ومجزيين.

وإذا كان كلّ عمل عن محبة وإرادة، والترك يكون عن بغض وكراهة ـ وكل أحد همَّام حارث له حب وبغض، لا يخلو الحي عنهما، وعمله يتبع حبه وبغضه، ثم قد يكون ذلك في أمور هي له عادة وخلق، وقد يكون في أمور عارضة لازمة ـ علم أن [كل] طائفة من بني آدم لا بد لهم من دين يجمعهم، إذ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٥٨) والديلمي في الفردوس برقم (٢٠٢٤) وإسناده ضعيف جدًّا فيه محمد بن عبد الملك: متروك.

لا غنى لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرته، فلا بد من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم، مثل طلب نزول المطر، وذلك محبتهم له، وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم، وذلك بغضهم له، فصار ولا بد أن يشتركوا في محبة شيء عام، وبغض شيء عام، وهذا هو دينهم المشترك العام.

وأما اختصاص كل منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه، وطلب ما يستره باللباس، فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه، بل كل منهم لا ينتفع في أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر، بل بنظيره.

وهكذا هي الأمور السماوية في الحقيقة، فإن عين المطر الذي ينزل في أرض هذا، ليس هو عين الذي ينزل في أرض هذا، ولكن نظيره، ولا عين الهواء البارد الذي يصيب جسد أحدهم، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذي يصيب جسد الآخر، بل نظيره.

لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة، ولهذا تعلق حبهم وبغضهم بها عامة مشتركة، بخلاف الأمور التي تتعلق بأفعالهم كالطعام واللباس، فقد تقع مختصة وقد تقع مشتركة.

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم، وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك، وهو التعاهد والتعاقد.

ولهذا جاء في الحديث: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[1].

فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم: من التزام واجبات ومحرمات، وهو الوفاء والعهد، وهذا قد يكون باطلاً فاسداً، إذا كان فيه مضرة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠) والبغوي في شرح السنة برقم (٣٨) وابن حبان في صحيحه برقم (١٩٤) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في تخريجه لكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص١١).

لهم راجحة على منفعته، وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوبة: ٢٩].

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته، كما بيَّنا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خُلقاً، وبذلك يكون المطاع محبوباً مراداً، إذ أصل ذلك المحبة والإرادة.

ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك [له]، ورسله وأولو الأمر أُطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني**»(١).

وأما العبادة فللَّه وحده ليس فيها واسطة، فلا يعبد العبد إلا الله وحده، كما قد بيَّنا ذلك في مواضع، وبيّنا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح، باطل غير حق، أي لا ينفع صاحبه.

وقد قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح برقم (٢٩٥٧، ٧١٣٧) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٣٥) والنسائي في سننه (٧/ ١٥٤) وابن ماجه في سننه برقم (١٢٣٩) وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٧٠، ٣١٣، ٣٨٦، ٤١٦، ٤٦٧، ٤٧١، ٥١١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٣٧) وابن ماجه في سننه برقم (٢٢١) وأحمد في المسند (٤/١٠١).

فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع، ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل ـ فكل دين سوى الإسلام فهو باطل.

وأيضاً فلا بد لكل حي من محبوب، هو منتهى محبته وإرادته، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره، وذلك هو إلٰهه، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فكل ما سوى الإسلام فهو باطل.

والمتفرقون أيضاً فيه، الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه، وافترقت أهواؤهم، قد بريء الله ورسوله منهم.

ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين:

أحدهما: الدين المحبوب وهو المقصود المراد.

والثاني: نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة.

كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، [حتى يكون خالصاً صواباً]، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[1].

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين: المعبود، والعبادة، والمعبود إلٰه واحد، والعبادة طاعته وطاعة رسوله ﷺ، فهذا هو دين الله الذي ارتضاه، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره؛ لأنه دين فاسد باطل، كمن عبد من لا تصلح عبادته، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به.

ثم مع اشتراك الأولين والآخرين في هذا الدين فيتنازعون في كل منهما، فإن الله سبحانه له الأسماء الحسنى، وله المثل الأعلى، فقد تعرف هذه الأمة من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥).

أسمائه وصفاته ما لا تعرف به الأمة الأخرى، فهم مشتركون في عبادة نفسه، وإن تنوعوا فيما عرفوه وعبدوه به من أسمائه وصفاته.

وقد رفع الله بعضهم فوق بعض درجات، فهذا تنوعهم في المعبود، وكذلك حالهم في معرفة اليوم الآخر.

وأما تنوعهم في العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال؛ فإنهم متنوِّعون في ذلك أيضاً.

وقد قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

وهذان الأصلان قد جاءت شريعتنا فيهما بأنواع: فجاءت في أسماء الله وصفاته بأنواع، وجاءت في صفات العبادات بأنواع، والأصل الأول ينضم إليه اليوم الآخر وما جاء في نعته من الأسماء والصفات والوعد والوعيد.

وهذه الأصول الثلاثة: وهي الإيمان بالله، وباليوم الآخر، والعمل الصالح، هي الموجبة للسعادة في كل ملة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، والشرع ما جاءت به الرسل، وهو الأصل الرابع.

فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة، والتفرق في ذلك بالأمر في بعضه، والنهي عن بعض، هو من التفرق والاختلاف الذي ذمه الكتاب والسنة من المختلفين.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ولهذا غضب النبي ﷺ لما اختلفوا في القراءة، وقال: «**كلاهما محسن**»[1].

وقال: «**إن القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر**»[2]. وكذلك غضب لما تنازعوا في القدر[3]، وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضي إلى الإيمان ببعض دون بعض.

وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك، وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله [لله]، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢].

فإقامة وجهة الدين حنيفاً، وعبادة الله وحده لا شريك له ـ وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به ـ أن يكون الدين كله لله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله، وهذا يجمع كل حق، ويُجمع عليه كل حق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢) وأحمد في المسند (١/ ٣٩٣، ٤١١، ٤١٢) والبغوي في شرح السنة برقم (١٢٢٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٤١٩، ٥٠٤١، ٧٥٥٠) ومسلم في صحيحه برقم (٨١٨) وأبو داود في سننه برقم (١٤٧٥) والترمذي في سننه برقم (٢٩٤٣) والنسائي في سننه (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢) وأحمد في المسند (١/ ٤٠، ٤٢، ٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٧٨ ـ ١٩٦) وابن ماجه في سننه برقم (٨٥) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٦٩).

وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يكون لكل قول ما يمتازون به، مثل معظم مطاع، أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته، ومثل قول ودين ابتدعوه لم يأذن الله به، ولم يشرعه، فيكون كل من الفريقين مشركاً من هذا الوجه.

وأيضاً ففي قلوب بني آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه، وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه، وبذلك تصلح حياتهم، ويدوم شملهم؛ وحاجتهم إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء، فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم، وبفقد التأله تفسد النفس، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له، وهي الفطرة التي فطروا عليها، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه**»[1].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه أنه قال: «**إنني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**»[2].

لكن أكثر الشرك في بني آدم بإيجاد إلٰه آخر مع الله، ودان بذلك كثير منهم في أنواع كثيرة.

فصار كل طائفة من بني آدم لا بد لهم من دين لهذين الأمرين: لحاجة نفوسهم إلى الإلٰه الذي هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر، ولحاجتهم إلى التزام ما يحبونه من الحاجات ويدفعون من المضرات.

وهم مشركون في المحبة للأمور المنزّلة: أعيانها وأنواعها، فهم مشركون في محبة الإلٰه الذي يعبدونه وتعظيمه، ومحبة من يبلغ عنه ما يختص به، ومحبة أوامره ونواهيه؛ مشركون في محبة غير ذلك، ومشركون أيضاً في محبة جنس ما التزموه من الواجبات والمحرمات العامة، التي هي جلب المنفعة لهم جميعاً، ودفع المضرة عنهم جميعاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٣، ٢٨٢، ٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣، ٤١٠) والبغوي في شرح السنة برقم (٨٤ ـ ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٦٥) وأحمد في المسند (٤/ ١٦٢، ٢٦٦).

فهذه المحبة هي المحبة الدينية، كحب الدين الذي هم عليه حقًّا كان أو باطلاً، وكذلك محبة ما يعين على ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك، فهي أيضاً محبة دينية.

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات: أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم، لكن هذا قد يكون المقصود في أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم، مثل: قوم نوح، ونمرود، وجنكيزخان وغيرهم.

فإن كل طائفة من بني آدم محتاجون إلى التزام واجبات، وترك محرَّمات، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية، وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان.

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها، فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بني آدم ويقهرونهم، كفعل فرعون وجنكيزخان ونحوهما، فهؤلاء من أعظم الناس عذاباً في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٣ ـ ٤].

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون في غير موضع من القرآن، وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك، كما قال تعالى في قصة يوسف: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] وهذا الملك كان فرعون يوسف، وكان قبل فرعون موسى. وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط، وهو اسم جنس كقيصر وكسرى والنجاشي ونحو ذلك.

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشّائين، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل في المسلمين واليهود والنصارى، يجعلون الشرائع والنواميس والديانات من هذا الجنس، لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا، ولهذا لا

يأمرون فيها بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة، ولا ينهون فيها عن الشرك، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد، ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين.

وقد تكلمت على أقسام الديانات في غير هذا الموضع، وبينت الطبعي، والملى، والشرعي، وإنما جاء ذكر هذا هنا مطرداً.

ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات، كما وضعوه في كتب ذلك، يقولون في بعض الطيالسم: هذا يصلح لوضع النواميس، كما تواصت القرامطة والباطنية، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم ـ وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم ـ وكما يفعله المشركون من الترك والهند في بلادهم.

والمتفلسفة الصابئة تجعل ذلك جنساً لما بعثت به الرسل من الآيات، ويجعلون موسى والسحرة والذين عارضوه من جنس واحد.

وهؤلاء كما قال تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] هم مقرون بأن منفعة ذلك لا تكون في الآخرة، وإنما يرجون منفعته في الدنيا، وإن كان فيه بلوغ بعض الأعراض من رئاسة أو شهوة.

فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] إذ ما فيه من المضرة يربو على ما فيه من الخير. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣]، ولهذا كان ما نهى عنه من هذا الجنس إنما هو لكون الضرر فيه أغلب من المنفعة، فأما ما ينفع الناس فلم ينه الله عنه.

ولهذا لما عرض على النبي ﷺ الرقى قال: «**من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**»[1] وقال: «**لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٩٩) وابن ماجه في سننه برقم (٣٥١٥) وأحمد في المسند (٣/ ٣٠٢، ٣٣٤، ٣٨٢، ٣٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٠٠) وأبو داود في سننه برقم (٣٨٨٦).

وذكر البخاري في صحيحه في استخراج السحر عن قتادة قال: قلت لسعيد ابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته: أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه[1].

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، فالتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان، وهو قول وعمل، كما قد بُيّن في غير هذا الموضع.

ومعلوم أن قوة المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً، ويتفاوت حال الشخص الواحد في محبة الشيء الواحد، بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة، بل قد يتبدل أقوى [الحب] بأقوى البغض وبالعكس.

قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٤]، وإبراهيم هو إمام الحنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه، وهو خليل الله.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقال بعد ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطب/ باب ٤٩ معلقاً (١٠/ ٢٣٢ فتح الباري).

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات، وكذلك محبة الله لهم هي محبة عظيمة جدًا، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه»**[1].

وقد تأوَّل الجهمية ـ ومن اتبعهم من أهل الكلام ـ محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه، فتكون من الأفعال.

وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا: هي إرادة الإحسان، وربما قال كلاً من القولين بعض المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

وسلف الأمة وأئمة السنة على إقرار المحبة على ما هي عليه.

وكذلك محبة العبد لربه يفسرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له، وإرادة التقرب إليه، لا يثبتون أن العبد يحب الله.

وسلف الأمة، وأئمة السنة، ومشايخ المعرفة، وعامة أهل الإيمان: متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطِّلة لأصل الدين، بل هم متفقون على أنه لا يكون شيء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه.

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، فلم يرض [إلا] بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم من الأهلين والأموال، حتى يكون الجهاد في سبيل الله الذي هو من كمال الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٥٠٢) وابن حبان في صحيحه برقم (٣٤٧).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، ولهذا وصف الله المحبِّين له الذين يحبهم هو بالجهاد، فقال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأما تنازع الناس في لفظ «العشق» فمن الناس من أهل التصوف والكلام وغيرهم من أطلق هذا اللفظ في حق الله، كما روى عبد الواحد بن زيد فيما يؤثره عن [أحد أنبياء] الله أنه قال: «عشقني وعشقته»(١).

وقال هؤلاء: العشق هو المحبة الكاملة التامة، وأولى الناس بذلك هو الله، فإنه هو الذي يجب أن يحب أكمل محبة، وكذلك هو يحب عبده محبة كاملة.

ولو قيل: إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها، أو نحو ذلك، فهذا المعنى حق من العبد، فإنه يحب ربه منتهى المحبة وأقصاها، والله يحب عبده، مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليماً، أقصى محبة تكون لعباده ومنتهاها، وهما خليلا الله.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(٢)، وقال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»(٣).

وذهب طوائف من أهل العلم والدين إلى إنكار ذلك في حق الله؛ ولا ريب أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن أئمة السلف.

والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ مأخذان، ومن جهة المعنى مأخذان:

أما من جهة اللفظ: فإن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن السلف، وباب الأسماء

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٦٥) وإسناده ضعيف جدًّا، فيه عبد الواحد بن زيد متروك، ومحمد بن الفضل بن عطية: كذبوه. كما أنه مرسل.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٥٣٢) وابن حبان في صحيحه برقم (٦٤١٥).
(٣) انظر التخريج السابق.

والصفات يتَّبع فيها الألفاظ الشرعية، فلا نطلق [إلا] ما يرد به الأثر.

والأوَّلون يستدلون بمثل قول عبد الواحد بن زيد ونحوه.

وهؤلاء يقولون: هذا من الإسرائيليات التي لا يجوز الاعتماد عليها في شرعنا، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يعلم إلا من جهة نبينا ﷺ، وذلك غير مأثور عنه، ونحن لا نصدِّق بما ينقل عن الأنبياء المتقدمين، إلا أن يكون عندنا ما يصدِّقه، كما لا نكذِّب إلا بما نعلم أنه كذب، وقد قال النبي ﷺ: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدّقوه، وإما يحدثوكم بحق فتكذّبوه**»[1]، وهذا الوجه يقتضي الامتناع من الإطلاق، إلا [عند] الجزم بتحريمه في جميع الشرائع.

المأخذ الثاني: أن المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح، مثل حب الإنسان الآدمي مثله ممن يستمتع به من امرأة أو صبي، فلا يكاد يستعمل هذا اللفظ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك، ولا في محبته لآدمي لغير صورته، مثل محبة الآدمي لعلمه، ودينه، وشجاعته، وكرمه، وإحسانه، ونحو ذلك. بل المشهور من لفظ «العشق» هو محبة النكاح ومقدماته، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق، وسماع كلامه أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء، وإن كان كثير من العشاق لا يختار الوطء، بل يحب [تقبيل ومعانقة] موطوءته، فهو يحب مقدمات الوطء. وكم ممن اشتغل بالوسيلة عن المقصود.

ثم لفظ «العشق» قد يستعمل في غير ذلك، إما على سبيل التواطؤ، فيكون حقيقة في القدر المشترك، وإما على سبيل المجاز.

لكن استعماله في محبة الله إما أن يفهم أو يوهم المعنى الفاسد، وهو أن الله يحب ويحب، كما تحب صور الآدميين التي نستمتع بمعاشرتها ووطئها، وكما تحب الحور العين التي في الجنة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٦٤٤) وأحمد في المسند (١٣٦/٤) وابن حبان في صحيحه برقم (٦٢٥٧) وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن أبي داود برقم (٧٨٦) وفي الضعيفة برقم (١٩٩١).

وهذا المعنى من أعظم الكفر، وإن كان قد بلغ إلى هذا الكفر الاتحادية، الذين يقولون: «إنه عين الموجودات»، ويقولون: «ما نكح سوى نفسه، وهو الناكح والمنكوح».

وكذلك الذين يقولون بالحلول العام، والذين يقولون بالاتحاد في صور معينة، أو بحلوله فيها، كما يقوله الغالية من النصارى والرافضة وغالية النسَّاك، فإن هؤلاء يصفونه بما يوصف به البشر من النكاح، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً، هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ومن هؤلاء من يعشق الصور الجميلة، ويزعم أنه يتجلى فيها، وأنه إنما يحب مظاهر جماله، وقد بسطنا الكلام في كفرهم وضلالهم في غير هذا الموضع، فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلى هذا المعنى، فهو أعظم كفراً من اليهود والنصارى.

وأما المأخذ المعنوي: فهو أن العشق: هل هو فساد في الحب والإرادة، أو فساد في الإدراك والمعرفة؟ قيل: إن العشق هو الإفراط في الحب حتى يزيد على القصد الواجب، فإذا أفرط كان مذموماً فاسداً، مفسداً للقلب والجسم، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فمن صار [مُفْرِطاً صار مريضاً]، كالإفراط في الغضب والإفراط في الفرح وفي الحزن.

وهذا الإفراط قد يكون في محبة الإنسان لصورته، وقد يكون في محبته لغير ذلك، كالإفراط في حب الأهل والمال، والإفراط في الأكل والشرب وسائر أحوال الإنسان، وهذا المعنى ممتنع في حق الله من الجهتين، فإن الله لا يحب محبة زيادة على العدل، ومحبة عباده المؤمنين له ليس لها حد تنتهي إليه، حتى تكون الزيادة إفراطاً وإسرافاً ومجاوزة للقصد، بل الواجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يلقى في النار»** وفي رواية في الصحيح: **«لا يجد عبد حلاوة الإيمان**

حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» إلى آخره[1].

وقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2].

وفي الصحيح أن عمر قال له: يا رسول الله والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك»، قال: فلأنت أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر»[3].

وقد تقدم دلالة القرآن على هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقيل: إن العشق هو فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة؛ فإن العاشق يخيل له المعشوق على خلاف ما هو به حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق، وإن حصل له محبة وعلاقة.

ولهذا يقول الأطباء: العشق مرض وسواسي شبيه بالمالنخوليا، فيجعلونه من الأمراض الدماغية التي تفسد التخيّل كما يفسده المالنخوليا.

وإذا كان الأمر كذلك امتنع في حق الله من الجانبين، فإن الله بكل شيء عليم، وهو سميع بصير، مقدَّس منزَّه عن نقص أو خلل في سمعه وبصره وعلمه. والمحبون له عباده المؤمنون الذين آمنوا به وعرفوه بما تعرَّف به إليهم من أسمائه وآياته، وما قذفه في قلوبهم في أنوار معرفته، فليست محبتهم إياه عن اعتقاد فاسد.

لكن قد يقال: إن كثيراً ممن يكون فيه نوع محبة لله، قد يكون معها اعتقاد فاسد، إذ الحب يستتبع الشعور، لا يستلزم صريح المعرفة، لا سيما من كان من

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

عقلاء المجانين، الذين عندهم محبة لله وتأله، وفيهم فساد عقل، فهؤلاء قد يصيب أحدهم ما يصيب العشاق في حق الله، ومعهم حب شديد، ونوع من الاعتقاد الفاسد.

وكثيراً ما يعتري أهل المحبة من السكر والفناء، أعظم ما يصيب السكران بالخمر، والسكران بالصور، كما قال تعالى في قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فالحب له سكر أعظم من سكر الشراب، كما قيل:

سُكران: سكر هوىً وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران

ومعلوم أنه في حال السكر والفناء تنقص المعرفة والتمييز، ويضطرب العقل والعلم، فيحصل في ضمن ذلك من الاعتقادات والتخيلات الفاسدة، ما هو من جنس العشق الذي فيه فساد الاعتقاد.

وهؤلاء محمودون على ما معهم من محبة الله والأعمال الصالحة والإيمان به، وأمّا ما معهم من اعتقاد فاسد وعمل فاسد لم يشرعه الله ورسوله، فلا يحمدون على ذلك، لكن إن كانوا مغلوبين على ذلك، بغير تفريط منهم ولا عدوان، كانوا معذورين، وإن كان ذلك لتفريطهم فيما أمروا به، وتعديهم حدود الله، فهم مذنبون في ذلك، مثل ما يصيب كثيراً ممن يهيج حبه عند سماع المكاء والتصدية والأشعار الغزلية، فتتولد لهم أنواع من الاعتقادات والإرادات التي فيها الحق والباطل، وقد يغلب هذا تارة وهذا تارة.

فباب محبة الله ضلّ فيه فريقان من الناس: فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم، جحدوها وكذَّبوا بحقيقتها.

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا بها المشركين.

فالأولون يشبهون المستكبرين، وهؤلاء يشبهون المشركين.

ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود، ويكون الثاني في أشباه النصارى.

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

فصل

ومن المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم، ففي نيل المحبوب لذة، وفراقه يكون فيه ألم، وفي نيل المكروه ألم، وفي العافية منه تكون فيه لذة، فاللذة تكون بعد إدراك المشتهى، والمحبة تدعو إلى إدراكه.

فالمحبة: العلة الفاعلة لإدراك الملائم المحبوب المشتهى، واللذة والسرور هي الغاية.

واللذات الموجود في الدنيا ثلاثة أجناس: فجنس بالجسد تارة: كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد، فإن [أنواع] المأكول والملبوس يباشرها الجسد.

و[جنس] يكون مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره، كالمدح له، والتعظيم له، والطاعة له، فإن ذلك لذيذ محبوب له، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه، وأكل ما يضره يؤلمه، وكذلك فوات الكرامة ـ بحيث لا يكون له قدر عند أحد ولا منزلة ـ يؤلمه، كما يؤلمه ترك الأكل والشرب، ويؤلمه الذم والإهانة، كما يؤلمه الأكل والشرب الذي يضره.

فالمأكول والمنكوح هي أجساد تنال بالجسد، يتلذذ بوجودها، ويتألم بفقدها ولحصول ما يضر منها، وأما الكرامة فهي في النفوس إذا كانت النفوس ملائمة له وموافقة له، بأن يعتقد فيه ما يسره ويوافقه بالمحبة والتعظيم، كان ذلك مما يوجب لذته، ولذته بإدراكه ذلك الملائم من الناس، ومدحهم المظهر لاعتقادهم، ومن طاعتهم وموافقتهم المظهرة لمحبتهم وتعظيمهم.

والجنس الثالث أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه وبعقله كذلك، كالتذاذه بذكر الله، ومعرفته، ومعرفة الحق، وتألمه بالجهل: إما البسيط، وهو عدم الكلام والذكر، وإما المركب وهو اعتقاد الباطل، كما يتألم الجسد بعدم غذائه تارة، وبالتغذي بالمضار أخرى.

كذلك النفس تتألم بعدم غذائها، وهو موافقة الناس وإكرامهم تارة، وبالتغذي بالضد، وهو مخالفتهم وإهانتهم، فكذلك القلب يتألم بعدم غذائه، وهو العلم الحق وذكر الله تارة، والتغذي بالضد، وهو ذكر الباطل واعتقاده أخرى.

قال النبي ﷺ: **«إن كل أحد يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن»**(١).

وهذه اللذات الثلاث: اللذات الحسية، والوهمية، والعقلية. وقد علمت أن كل ما خلقه الله في الحي من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة، وفي ذلك من جلب المنفعة للحي، ودفع المضرة عنه، ما هو من عظيم نعم الله عليه.

والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويلها وتغييرها، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، والله شرع من الدين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال، الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أن قوى الحركة في الجسد، التي هي حركات طبعية، متى لم تكن على وجه الاعتدال، وإلا فسد الجسد، وكذلك قوى الإدراك والحركة التي فيه وفي النفس متى لم تكن على وجه الاعتدال، وإلا فسد الجسد، والحركة الطبعية ليس فيها حس ولا إرادة، وهذه لا تكون عن حركة إرادية كما تقدم، لكن لا يكون ذلك في نفس المتحرك بطبعه، كحركة الغذاء قبل أن يصرفه الخارج من السبيلين وغير ذلك.

والله سبحانه قد شرع من هذه اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان في الدنيا، وجعل اللذة التامة بذلك في الدار الآخرة، كما أخبر الله بذلك على ألسن رسله بأنها هي دار القرار، وإليها تنتهي حركة العباد.

واللذة هي الغاية من الحركات الإرادية، فتكون الغاية من اللذات عند الغاية من الحركات، ولا يخالف ما يوجد في الوسيلة والطريق، فإن الموجود فيها من اللذات بقدر ما يعين على الوصول إلى المقصود التام، وكل لذة، وإن جلّت، هي في نفسها مقصودة لنفسها، إذ المقصود لنفسه هو اللذة، لكن من اللذات ما يكون عوناً على ما هو أكثر منه أيضاً، فيكون مقصوداً لنفسه بقدره، ويكون مقصوداً لغيره بقدر ذلك الغير، وهذا من تمام نعمة الله على عباده، وكل ما

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٠١٢) وإسناده ضعيف.

يتنعمون به، إذا استعملوه على وجه العدل الذي شرعه، أوصلهم به إلى ما هو أعظم نعمة منه.

ولذات الجنة أيضاً تتضاعف وتتزايد كما يشاء الله تعالى، فإن الله يقول، كما ذكره النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1] وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

ولهذا بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين: مبشِّرين بنعمة الله التامة في جنته لمن أطاعهم، فاتبع الذكر الذي أنزل عليهم، واستعمل القسط الذي بعثوا به. ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين.

قال تعالى: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

وقد غلطت المتفلسفة من الصابئة والمشركين ونحوهم، ومن حذا حذوهم ممن صنَّف في أصناف هذه اللذات، كالرازي وغيره في أمر هذه اللذات في الدنيا والآخرة، حتى جرَّهم ذلك الغلط إلى الدين الفاسد في الدنيا بالاعتقادات الفاسدة، والعبادات والزهادات الفاسدة، وإلى التكذيب بحقيقة ما أخبر الله به على ألسن رسله من وعده ووعيده، فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا، معرضين عمّا خلقوا له من لذات الآخرة، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة في الدنيا، أو موصل للذة في الدنيا، وهم في ذلك: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]، فجهلوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨) ومسلم في صحيحه برقم (٢٨٢٤) والترمذي في سننه برقم (٣١٩٧) وابن ماجه في سننه برقم (٤٣٢٨) وأحمد في المسند (٢/٣١٣، ٤٦٦، ٤٩٥) والبغوي في شرح السنة بالأرقام (٤٣٧٠، ٤٣٧١، ٤٣٧٢).

المقاصد والوسائل، فكانوا ضالين يقصدون ما ينفعهم ويلذذهم، وهم لا يعرفون عين مقصودهم ولا الطريق إليه، وصار عامتهم غواة منهمكين في اللذات التي تضرهم.

والنصارى ضارعوهم في بعض ذلك حين كذّبوا بكثير مما وعدوا به في الآخرة من اللذات، وضلّوا بما ابتدعوه من العبادات، فكانوا ضالين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ولهذا يغلب على عوامهم الغيّ واتباع شهوات الغيّ، إذ لم يحرموا عليهم شيئاً من المطاعم والمشارب.

وأما اليهود فهم أعلم بالمقصود وطريقه، لكنهم غواة قساة، مغضوب عليهم.

ويتبين ذلك بأصلين:

أحدهما أنهم اعتقدوا أن اللذات الحسية والوهمية ليست لذات في الحقيقة، وإنما هي دفع آلام، وربما حسَّنوا العبارة فقالوا: ليس المقصود بها التنعم، وإنما المقصود بها دفع الألم، بخلاف اللذات العقلية الروحانية، فإنها هي اللذات فقط، وهي المقصودة لذاتها فقط، وعن هذا يدفعون أن تكون للنفوس بعد مفارقة الدنيا لذات حسية، أو وهمية، وإنما يكون لها لذات روحانية فقط.

ثم إن من دخل مع أهل الملل منهم ووافق المؤمنين بإظهاره للإقرار بما جاءت به الرسل، وقال: إن ما أخبرت به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو أمثال مضروبة لتفهم العامة المعاد الروحاني، وما فيه من اللذة والألم الروحانيين، وربما يغرب بعضهم فأثبت اللذات الخيالية، بناءً على أن النفوس يمكن أن يحصل لها من إشراق الأفلاك [عليها] ما يحصل لها به من اللذة ما هو من أعظم اللذات الخيالية، التي قد يقولون: هي أعظم من الحسية.

الأصل الثاني: أن اللذات العقلية التي أقرُّوا بها لم تحصل لهم، ولم يعرفوا الطريق إليها، بل ظنوا أن ذلك إنما [هو] إدراك الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه، وطلبوا اللذة العقلية في الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية، وتكلموا في الإلٰهيات بكلام حقه قليل وباطله كثير، فكانوا طالبين للذة

العقلية التي أثبتوها بالأغذية الفاسدة التي تضر وتؤلم، أكثر من طلبها بالأغذية النافعة، بل كانوا فاقدين لغذائها الذي لا صلاح لها إلا به، وهو إخلاص الدين لله، بعبادته وحده لا شريك له، فإن هذا هو خاصة النفس التي خلقت له، لا تصلح [إلا] به، ولا تفسد فساداً مطلقاً مع وجوده قط، بل من بات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة.

كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال من وجوه متعددة ـ من حديث عثمان بن عفان، وأبي ذر، ومعاذ بن جبل، وأبي هريرة، وعتبان بن مالك، وعبادة بن الصامت، وغيرهم ـ: ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، بل يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان(١).

وقد تكلمت على رسالة المبدأ والمعاد التي صنفها أبو علي بن سينا، وزعم أن فيها من الأسرار المخزونة من فلسفتهم بما يناسب هذا مما ليس هذا موضعه، وبينت ما دخل عليهم من الجهل والكفر في ذلك من وجوه بينة من لغاتهم ومعارفهم التي يفقهون بها، ويعلمون صحة ما عليه أهل الإيمان بالله ورسوله، وبطلان ما هم عليه مما يخالف ذلك من الحقيقة، وإن زعموا أنهم موافقون لأهل الإيمان.

نعم هم مؤمنون ببعض، وكافرون ببعض، كما قد بيّنت أيضاً مراتب ما معهم ومع غيرهم من الكفر والإيمان في غير هذا الموضع، وذكرت ما كفروا به مما خالفوا به الرسل، وما آمنوا به مما وافقوهم [فيه].

فإن الله أمرنا بالعدل، وأمرنا أن نعدل بين الأمم، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٤٤، ٤٤٧٦، ٧٤١٠، ٧٥١٦) ومسلم في صحيحه برقم (٣٢٣) والترمذي في سننه برقم (٢٥٩٣) والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) وابن ماجه في سننه برقم (٤٣١٢) وأحمد في المسند (٣/ ١١٦ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فصل

وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الله أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع، وهذا هو الإسلام.

وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو سبحانه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والشرك: منه جليل ودقيق، وخفي وجلي.

كما في الحديث: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله: إذا كان أخفى من دبيب النمل فكيف تصنع به؟ ـ أو كما قال ـ فقال: «**ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما [لا] أعلم**»(١).

فمعلوم أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر أن من الناس من يشرك بالله، فيتخذ أنداداً يحبونهم كما يحبون الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء، والمؤمنون أشد حبًّا لله من هؤلاء لأندادهم ولله، فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة، فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله، فلم يجعلوا لله عدلاً في المحبة، بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، ومحبة الرسول هي من محبة الله، وكذلك كل حب في الله، هو من الحب لله.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٥٨) وابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٢٨٦) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧١٦) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد (ص٢٤٧).

كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان»** وفي رواية في الصحيح: **«لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»**[1].

ولهذا في الحديث: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**[2] وفي الأثر: **«ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه»**[3]. لأن هذه المحبة من محبة الله، وكل من كانت محبته لله أشدّ، كان أفضل.

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ، وخير البرية بعده إبراهيم، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وكل منهما خليل الله.

والخُلَّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلة، بل قال ﷺ في الحديث الصحيح: **«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»**[4] وفي لفظ: **«أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته»**[5].

فمحبة ما يحبه الله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله، وهو الحب في الله ولله، وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده، فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة لله، ولا تكون لله، ويظن وجود المحبة لله في أمور، ولا تكون المحبة لله موجودة، بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة، وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله، ولا يكون لله، كما يعتقد وجود العلم أو العبادة أو غير ذلك من الصفات في بعض الأشخاص والأحوال، ولا

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٥٤٤) وابن حبان في صحيحه برقم (٥٦٦) وأبو يعلى في مسنده برقم (٣٤١٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد (ص١٨٧).

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم تخريجه.

يكون ثابتاً، وقد يعتقد في كثير من الأعمال أنه معمول لله، ولا يكون لله.

فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة، وهي الواجبات والمستحبات: إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله، ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده.

وكما في الحديث الصحيح عن الله تعالى: **«من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه»**[(١)].

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته، كما في الحديث الصحيح: في الذي كان يصلي بأصحابه فيقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١]: إما أن يقرأها وحدها، أو يقرأ بها مع سورة أخرى. فأخبروا بذلك النبي ﷺ، فقال: **«سلوه: لم يفعل ذلك؟»** فقال: لأني أحبها، فقال: **«[إن] حبك [إياها أدخلك الجنة]»**[(٢)].

وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين، كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف في حجه فيقول: «اللهم اجعلني أحبك، وأحب ملائكتك، وأنبياءك وعبادك الصالحين، اللهم حببني إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين».

بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه، وهو سبحانه أعظم شيء بغضاً لمن لم يتبع رسوله. فمن كان صادقاً في دعوى محبة الله اتبع رسوله

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٧٥) ومسلم في صحيحه برقم (٨١٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٧٠٣) وابن حبان في صحيحه برقم (٧٩٣).

لا محالة، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب، ولم تكن الذنوب عن نفاق. كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب: حديث حمار الذي كان يشرب الخمر، وكان النبي ﷺ يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»**[1]. وفيه دلالة على أنّا منهيون عن لعنة أحد بعينه، وإن كان مذنباً، إذا كان يحب الله ورسوله.

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصي تنقض المحبة، وهذا معنى قول الشبلي لما سئل عن المحبة، فقال: ما غنَّت به جارية فلان:

تعصي الإلٰه وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع

وهذا كقوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**[2] وقد تكلمنا على هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله ولله، الذي هو داخل في محبة الله، وهو من محبته، وبين الحب لغير الله الذي فيه شرك في المحبة لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن هؤلاء يشركون بربهم في الحب، عادلون به، جاعلون له أنداداً، وأولئك أخلصوا دينهم لله، فكان حبهم الذي هو أصل دينهم كله لله، وهذا هو الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وأمر بالجهاد عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠) ومسلم في صحيحه برقم (٥٧) وأبو داود في سننه برقم (٤٦٨٩) والترمذي في سننه برقم (٢٦٢٥) والنسائي في سننه (٨/ ٦٤ ـ ٦٥) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٣٦) وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٣، ٣١٧، ٣٧٦، ٣٨٦).

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة: ٢٤].

وقد علم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم، ثم إن اتخاذ الأنداد هو من أعظم الذنوب، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تزاني بحليلة جارك**»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨][١]، فدعاء إله آخر مع الله هو اتخاذ ندٍّ من دون الله، يحبه كحب الله، إذ أصل العبادة المحبة.

والمحبة وإن كانت جنساً تحته أنواع، فالمحبوبات المعظَّمة لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد، كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أُعطِيَ رضي، وإن مُنع سخط**»[٢].

فسمَّى هؤلاء الأربعة [الذين] إن أعطوا رضوا، وإن منعوا سخطوا ـ لأنها محبتهم ومرادهم ـ عباداً لها، حيث قال: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة.

فإذا كان الإنسان مشغوفاً بمحبة بعض المخلوقات لغير الله، الذي يرضيه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠) ومسلم في صحيحه برقم (٨٦) وأبو داود في سننه برقم (٢٣١٠) والترمذي في سننه برقم (٣١٨٢، ٣١٨٣) والنسائي في سننه (٧/ ٨٩ ـ ٩٠) وأحمد في المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) وابن ماجه في سننه برقم (٤١٣٥) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٠٥٩).

وجوده، ويسخطه عدمه ـ كان فيه من التعبد بقدر ذلك، ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل: العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ويجعلون آخره التتيم: والتتيم: التعبد، وتيم الله: هو عبد الله، فيصير العاشق لبعض الصور عبداً لمعشوقه.

والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق في القرآن عن المشركين، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين، كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: ٣٠].

وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء، ومن السوء عشقها ومحبتها، ومن الفحشاء الزنا، وقد يزني بفرجه من لا يكون عاشقاً، وقد يعشق من لا يزني بفرجه، والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبلة.

وأما الإصرار على العشق ولوازمه من النظر ونحوه، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير، والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء، ويوسف عليه السلام كان من المخلصين، حيث كان يعبد الله، لا يشرك به شيئاً، وحيث

توكل على الله، واستعان به، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠]، فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان، وإنما سلطانه على المتولِّين له، والمتولي من الولاية، وأصله المحبة والموافقة، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة، فالمتولُّون له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه، فهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

والشياطين شياطين الإنس والجن، والعبادة فيها الرغبة والرهبة. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص: ٧٥ ـ ٨٥].

فأقسم الشيطان ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾.

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء، فقال في الحجر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥]، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠] قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع في أقوى القولين، إذ العباد هم العابدون، لا المعبودون، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦].

وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٧ ـ ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥].

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له عليهم سلطان، وأن سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون، وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله، بل على من اتبعه من الغاوين.

والغيُّ: اتباع الأهواء والشهوات، وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد، وذلك هو الشرك، قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠]، فبيّن أن صاحب الإخلاص، ما دام صادقاً في إخلاصه، فإنه يعتصم من هذا الغي وهذا الشرك، وإنّ الغيّ هو يضعف الإخلاص، ويقوي هواه الشرك.

فأصحاب العشق، الذي يحبه الشيطان، فيهم من تولّى الشيطان، والإشراك به بقدر ذلك، لما فاتهم من إخلاص المحبة لله، والإشراك بينه وبين غيره في المحبة، حتى يكون فيه نصيب من اتخاذ الأنداد، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق، فيفنون فيه ويصرحون بأنّا عبيد له، فيوجد في هذا الحب والهوى، واقتراف ما يبغضه الله، وما حرَّمه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر، ومن قتل النفوس بغير حق، ومن الزنا، ومن الكذب، ومن أكل المال بالباطل، إلى غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التي يكرهها الله تعالى، لأن أصله أن يكون حبه كحب الله، وهو

من ترك إخلاص المحبة، ومن الإشراك بينه وبين غيره، أو من جعل المحبة لغير الله، فإذا عمل موجب ذلك، كان ذلك هو اتباع الهوى بغير هدىً من الله.

وفي الأثر: «**ما تحت أديم السماء إلٰه يعبد أعظم عند الله من هوى متبع**»[1].

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤].

ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك في الدين، وضعف إخلاص لله، وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال: إنه ليس شيء من المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك.

أمّا محبة الله فهي التي خُلق لها العباد، وهي سعادتهم، وقد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

وأما البشر المتماثل، من ذكر أو أنثى، فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه، ولهذا لا يعرف لشيء من المحبوبات التي تحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك، حتى يزيل العقل، ويفقد الإدراك، ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، ويوجب مرض الموت، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما في القلب من حب الله وإخلاص الدين له، عبادةً واستعانةً، فيكون فيه من الشرك ما يسلِّط الشيطان عليه، حتى يغويه بهذا الغي، الذي فيه من تولّي الشيطان والإشراك به، ما يتسلط به الشيطان.

ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر مما يطيع الله، حتى يطلب القتل في سبيله، كما يختار المؤمن القتل في سبيل الله، وإذا كان محبوبه مطيعه من وجه وعبداً له، [فهو أولى] بأن يكون هو مطيعه وعبداً له من وجه آخر.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمة الكبير برقم (٧٥٠٢) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٣) والديلمي في الفردوس برقم (٦٦٧٤) وهو حديث موضوع، فيه الحسن بن دينار والخصيب بن جحدر: كذابان.

وإذا كان النبي ﷺ قال: «**شارب الخمر كعابد وثن**»[1]. ومر علي رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ وأظنه قلب الرقعة[2].

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر، وبين الأنصاب والأزلام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوماً أو قريباً من يوم أو بعض يوم، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوي دائم، قال تعالى في قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون، بل كان الجنون المطبق لا الحمق، كما أنشد محمد بن جعفر في كتاب «اعتلال القلوب» قال: أنشدني الصيدلاني:

قالت جُنِنْتُ على رأسي فقلت لها ... العشق أعظم مما بالمجانين
العشق ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

وقال الآخر:

سكران: سكر هوىً وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران

فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها على صورة آدمي.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٣٣٧٥) وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٩٧) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١/ ٣٨٦) وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٧٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٨٧) والبيهقي في سننه (١٠/ ٢١٢) وإسناده منقطع.

نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ [يوسف: ٣٠] أي: شغفها حبه، أي وصل حبه إلى شغاف القلب، وهي جلدة في داخله، فهذا يكون قد اتخذ ندًا يحبه كحب الله.

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فالعداوة والبغضاء التي يريد أن يوقعها بالعشق، وصده عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره، كما قد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع، وبيّنا أن جميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان، وأن ذكر ذلك في الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات ـ ينبّه على ما في غيرهما من ذلك مما حُرِّم قبلهما: كقتل النفوس بغير حق، والفواحش، ونحو ذلك.

ومما يبين هذا أن الفواحش التي أصلها المحبة لغير الله، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك، هي في المشركين أكثر منها في المخلصين، ويوجد فيهم ما لا يوجد في المخلصين لله.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ [الأعراف: ٢٧ ـ ٣٠]، فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

وإذا كان سلطانه على أوليائه الذين تولوه والذين هم به مشركون، وهم الذين لا يؤمنون بالله ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢] ـ فيكون هؤلاء هم الغاوين، وهم الذين قال الشيطان: لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين.

ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأخبر عن أولياء الشيطان، وهم الذين يتولونه، والذين هم به مشركون: أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد لأسلافهم، وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم [بها]، فيتبعون الظن ـ في قولهم: إن الله أمرهم بها ـ وما تهوى الأنفس في تقليد أسلافهم واتباعهم.

وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعبَّاد، والأمراء والأجناد، والمتكلمة والمتفلسفة، والعامة وغيرهم، يستحلون من الفواحش ما حرَّمه الله ورسوله، وأصله العشق الذي يبغضه الله.

وكثير منهم يجعل ذلك ديناً، ويرى أنه يتقرب بذلك إلى الله، إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهديها، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمي، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها، ومنهم من يخص ذلك بها، ومنهم من يقول بإطلاق، وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.

وكل هؤلاء فيهم من الإشراك بقدر ذلك، ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك كالنصارى والرهبان والمتشبهين بهم من هذه الأمة من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم، فتجد فيهم قسطاً عظيماً من اتخاذ الأنداد من دون الله، يحبونهم كحب الله، إما تديناً، وإما شهوة، وإما جمعاً بين الأمرين، ولهذا تجد بين أغنيائهم وفقرائهم، وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفاً على اتخاذ أنداد من دون الله من هذين الوجهين.

ولهذا تجدهم كثيراً ما يجتمعون على سماع الشعر والأصوات التي تهيج الحب المشترك الذي يجتمع فيه محب الرحمٰن، ومحب الأوثان، ومحب الصلبان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب المردان، ومحب النسوان.

وهذا السماع هو سماع المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التي تجمع محبته وتعظيمه، فإذا كان في القلب ما يجد حلاوته من الإيمان بالله والتوحيد له، احتاج إلى أن

يستبدل بذلك ما يهواه، فيتخذ إلٰهه هواه، فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله، وهم لهم عدو، بئس للظالمين بدلاً.

ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين، وتغيير فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٦ ـ ١١٩].

قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ونفس ما خلقه الله لا تبديل له، لا يمكن أن توجد المخلوقات على غير ما يخلقه الله عليها، ولا أن تخلق على غير الفطرة التي خلقها الله عليها، لكن بعض الخلق قد يغير بعضها، كما قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه، كما تنتج البهيمة [بهيمة] جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»(١).

ومما يبيّن ذلك أن أصل العبادة هي المحبة، وأن الشرك فيها أصل الشرك، كما ذكره الله في قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل، حيث قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقال في القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] فلما أفلت الشمس قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩].

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا بالله، قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله، فجعل المقصود عدم كون الفتنة، ووجود كون الدين كله لله، وناقض بينهما، فكون الفتنة ينافي كون الدين لله، وكون الدين لله ينافي كون الفتنة، والفتنة قد فسرت بالشرك، فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك، وهو ينافي كون الدين كله لله.

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات، وفتنة الذين يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن، ومنه فتنة أصحاب العجل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥] قال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣].

قيل لسفيان بن عيينة: إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبًّا شديداً، فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣] أو كلاماً هذا معناه.

وكل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله.

وعشق الصور من أعظم الفتن، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: ١٥] ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤].

وقد قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

ومما يبين ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال:

«**أجعلتني لله ندًّا، بل ما شاء الله وحده**»[1] فأنكر عليه أن جعله نداً لله في هذه الكلمة التي جمع فيها بينه وبين الله في المشيئة، إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، فلا يكون شريكه، لما يعلم أن كون الشيء ندًّا لله قد يكون بدون أن يعبد العبادة التامة، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول الله تلك العبادة.

فصل

وبهذا يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعاً، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله، وعادى من يعاديه الله، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابه، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نبذ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة.

وأما موادة عدوه فإنها تنافي المحبة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فأخبر أن المؤمن ـ الذي لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما في الحديث المتفق عليه: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[2] ـ لا تجده موادّاً لمن حاد الله ورسوله، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان، ومحبوب الله ومحبوب معاديه لا يجتمعان.

فالمحب له لو كان موادًّا لمحاده لكان محبًّا لاجتماع مراد المتحادين المتعاديين وذلك ممتنع، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله، فإنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا يكون مؤمناً إلا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٧٨٣) وأحمد في المسند (١/ ٢١٤) وابن ماجه في سننه برقم (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد (ص٢٧٣).

(٢) تقدم تخريجه.

بذلك، ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبداً، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله.

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضاً، فأولئك ليسوا متحادين من كل وجه، فإن مع كل منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر، وإن كان يبغضه أيضاً، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة، وكذلك كل منهما لا يجب أن تكون جميع أفعاله موافقة لمحبة [الله] وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله، بل لا بد أن يفعل أحدهما ما لا يحبه الله وإن لم يبغضه، ولا بد أن يكون في الآخر أيضاً ما يحبه الله إذ هو مؤمن، فيجب أن يعطي كل واحد من المحبة بقدر إيمانه، ولا يجب أن يحب من أحدهما ما لا يحبه وإن كان لا يبغضه، بل ولا يحب [من] واحدهما ما كان خطأً أو ذنباً مغفوراً، وإن كان لا يبغض على ذلك، فلا يحب إلا ما أحبه الله ورسوله، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح.

وهذا الذي ذكرناه أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه، أنه إذا أحب الشيء لم يحب ضده، بل يبغضه، فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين، لكن قد يكون في القلب نوع محبة وإرادة لشيء، ونوع محبة وإرادة لضده، فهذا كثير، بل هو غالب على بني آدم، لكن لا يكون واحد منهما تامًّا، فإن المحبة والإرادة التامة توجب وجود المحبوب المراد مع القدرة، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة، وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة، فمتى وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تامًّا.

ومن هنا يعرف أن قول النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١) على بابه: لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تامًّا لما فعلها، فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب.

ومحبة الله ورسوله على درجتين: واجبة وهي درجة المقتصدين، ومستحبة وهي درجة السابقين.

---

(١) تقدم تخريجه.

فالأولى تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئاً يبغضه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى، وبغض ما حرَّمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه، [كما تقتضي عدم الأشياء التي نهى الله عنها]، وذلك مستلزم لبغضها التام.

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقرَّبين الذين قرَّبهم الله إليه، فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضي بغض ما أبغضه الله ورسوله، كما في سائر أنواع المحبة، فإنها توجب بغض الضد، علم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله، فإن مقصود الجهاد تحصيل ما أحبه الله، ودفع ما أبغضه الله.

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعاً، كان فيه نفاق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«من [مات] ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»**[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩١٠) وأبو داود في سننه برقم (٢٥٠٢) والنسائي في سننه (٦/٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٧٤).

وكذلك جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢]، فقرنه بالمحبة في الآيتين من قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ﴾ [التوبة: ٢٤]، وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤]، فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائه إخوانهم، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم، وأنهم يجاهدون في سبيل الله.

والجهاد من الجهد وهو الطاقة، وهو أعظم من الجهد الذي هو المشقة، فإن الضم أقوى من الفتح، وكلما كانت الحروف أو الحركات أقوى كان المعنى أقوى.

ولهذا كان الجُرْح أقوى من الجرح، فإن الجُرْح هو المجروح نفسه، وهو غير الجَرْح، مصدر، وهو فعل.

وكذلك الكُره، والمكروه، والمكره، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

فالجهد: نهاية الطاقة والقدرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

وفي الحديث: «**أفضل الصدقة جهد من مقل يُسرّه إلى فقير**»[1]. ولهذا قال

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٨/ ٢٧٥) وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨ - ١٧٩) والطيالسي في مسنده برقم (٤٧٨).

النبي ﷺ: «**الجهاد سنام العمل**»(١)، فإنه أعلى الإرادات في نهاية القدرة، وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان، كالسنام الذي هو أعلى ما في البعير، وقد يكون بمشقة، وقد لا يكون.

وأما الجَهد فهو المشقة، وإن لم يكن تمام القدرة.

فالجهاد في سبيل الله تعالى من الجهد، وهي المغالبة [في سبيل] الله بكمال القدرة والطاقة، فيتضمن شيئين، أحدهما: استفراغ الوسع والطاقة. والثاني: أن يكون ذلك في تحصيل محبوبات الله ودفع مكروهاته، والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر.

وهنا انقسم الناس أربعة أقسام: فقوم لهم قدرة، ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون، ويستعملون جهدهم وطاقتهم، لكن لا في سبيل الله، بل في سبيل آخر: إما محرمة، كالفواحش ما ظهر منها وبطن، والإثم والبغي بغير الحق، والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، والقول على الله بغير علم الحق.

وإما في سبيل لا ينفع عند الله، مما جنسه مباح، لا ثواب فيه، لكن الغالب [أن] مثل هذا كثير ما يقترن به من الشبه ما يجعله في سبيل الله أو في سبيل الشيطان.

وقوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم أيضاً قدرة كاملة، فهؤلاء سادة المحبين المحبوبين، المجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

والقسم الثالث: قوم فيهم إرادة صالحة، ومحبة لله قوية تامة، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولا يتركون مما يقوون عليه شيئاً، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذي قبله.

وما زال في المؤمنين على عهد النبي ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير، وفي

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٧) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (١٣٥٥).

مثل هؤلاء قال النبي ﷺ: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا سلكتم وادياً إلا كانوا معكم**». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»(1).
وقال له سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم؟ فقال: «**يا سعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم**»(2).

وروي أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، وقال: «**رب أشعث أغبر، ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه**»(3) وهذا كثير.

والقسم الرابع: من قدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم، فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم، كما يوجد في العلماء والعبَّاد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب ومنافقي هذه الأمة ما فيه مضاهاة لعلماء المؤمنين وعبّادهم، وذلك أن الشيطان جعل [لكل] شيء من الخلق نظيراً في الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله.

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا يشركوا به شيئاً، وبذلك أرسل الرسل، وبه أنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر؛ وبخلاف من

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢٨٣٨، ٢٨٣٩، ٤٤٢٣) وأبو داود في سننه برقم (٢٥٠٨) وابن ماجه في سننه برقم (٢٧٦٤) وأحمد في المسند (٣/ ١٠٣).
(2) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٨٩٦) والنسائي في سننه (٦/ ٤٥) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٠٦١).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٠٦٩) وابن حبان في صحيحه برقم (٦٤٨٣).

يخضع لمن لا يحبه، كما يخضع للظالم، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كل محبوب لغير الله، ومعظم لغير الله، ففيه شوب من العبادة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[1].

وذلك كما جاء في الحديث: «**إن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»[2] مع أنه ليس في الأمم أعظم تحقيقاً للتوحيد من هذه الأمة، ولهذا كان شداد بن أوس يقول: يا نعايا العرب يا نعايا العرب، إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية.

قال أبو داود: الشهوة الخفية: حب الرياسة.

وفي حديث الترمذي عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[3] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والحرص يكون على [قدر] قوة الحب والبغض.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: إذا كان الشرك أخفى من دبيب النمل فكيف نتجنبه؟ فقال النبي ﷺ: «**ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره، قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[4] فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين.

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٣٧٦) وأحمد في المسند (٣/٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦٠) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٠٥٤) وابن حبان في صحيحه برقم (٣٢٢٨) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (١٩٣٥).

(٤) تقدم تخريجه.

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ١ ـ ٣].

وفي الحديث: «**إن الشيطان قال: أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يستغفرون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**»[1] وهذا كذلك، فإن من اتخذ إلٰهه هواه صار يعبد ما يهواه، وقد زين له سوء عمله فرآه حسناً.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٢ ـ ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩﴾ [الأنفال: ٤٨ ـ ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وكمال الدين هو أداء الواجبات وترك المحرَّمات، والفعل والترك أصلهما الحب والبغض، فإذا ترك مأموراً أو فعل محظوراً فإنما هو لنقص الإيمان الذي هو التصديق، وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله.

والمحبوبات على قسمين: قسم يحب لنفسه، وقسم يحب لغيره، إذ لا بد

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (١٣٦) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٧) وهو حديث موضوع كما قال العلامة الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (ص١٠).

من محبوب يحب لنفسه، وليس شيء شرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى، وكذلك التعظيم لذاته، تارة يعظم الشيء لنفسه، وتارة يعظم لغيره، وليس شيء يستحق التعظيم [لذاته] إلا الله تعالى.

وكل ما أمر الله أن يحب ويعظم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله، فالله هو المحبوب المعظم في المحبة والتعظيم، المقصود المستقر الذي إليه المنتهى، وأما ما سوى ذلك فيحب لأجل الله، أي لأجل محبة العبد لله، يحب ما أحبه الله، فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب، وبغض بغيضه، ويشهد لهذا الحديث: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله**»(1).

وفي السنن: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»(2).

فمن أحب شيئاً لذاته أو عظَّمه لذاته غير الله فذاك شرك به، وإن أحبه ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا.

والله سبحانه لم يشرع أن يعبد [الإنسان] شيئاً من دونه، أو يتخذ إلٰهاً ليتوصل بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: ١٥١].

فمن أحب شيئاً كما يحب الله، أو عظَّمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندًا، وإن كان [يقول]: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، وأنهم شفعاؤنا عند الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي يحبونهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حبًا لله منهم، لأنهم أخلصوا لله، فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره، فإن الاشتراك فيها يوجب نقصها، والله لا يتقبل ذلك، كما في الحديث

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

الصحيح: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك**»[1].

فالمؤمن ـ الذي يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ـ لا بد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله، وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله، فلا يكون ذلك البغيض أحب إليه من محبوب الله ورسوله.

والحب التام منّا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة، والبغض التام منّا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة، فإذا كان العبد قادراً على محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها في قلبه، أو وجود ما يعارض الحق، مثل محبته لأهله وماله، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[2].

وقال له عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال: فأنت أحب إليَّ من نفسي. قال: «**الآن يا عمر**»[3] وهذان الحديثان في الصحيح.

فإن كانت واجبات نقص من درجة المقتصدين من أصحاب اليمين حتى يتوب أو يمحوها بشيء آخر، وإن كانت نوافل ـ فإنها من القُرَب ـ بحسب ذلك. وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها في قلبه، أو لقوة محبتها التي تغلب بعضها، فالإنسان لا يأتي شيئاً من المحرَّمات ـ كالفواحش ما ظهر منها وما بطن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٨٥) وابن ماجه في سننه برقم (٤٢٠٢) وأحمد في المسند (٢/٣٠١ ـ ٤٣٥) وابن حبان في صحيحه برقم (٣٩٥) والبغوي في شرح السنة برقم (٤١٣٦ ـ ٤١٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، والقول على الله بغير علم ـ إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله، أو ضعف العلم والتصديق، وإمّا ضعف المحبة والبغض.

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحاً، وهو التصديق، فإن هذه المحرمات [يفعلها المؤمن مع كراهته] وبغضه لها، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه، فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها، وفيه خوف من عقاب الله عليها، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها، إما بتوبة، وإما حسنات، وإما عفو، وإما دون ذلك، وإلا فإذا لم يبغضها، ولم يخف الله فيها، ولم يرج رحمته، فهذا لا يكون مؤمناً بحال، بل [هو] كافر أو منافق.

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له، لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها، حتى ظن أنها مصلحة له، أوجب وقوعها، وهو اتباع الظن وما تهوى الأنفس، وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح عليه، حتى ما هو ضد لبعض الإيمان، فلم يبق مؤمناً الإيمان الواجب، كما قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١)، وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً، وفيما أمره به فأطاعه، وهذا من الشرك بالشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك.

والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨].

وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

ويشهد لهذا ما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: **«إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر، ويبعث سراياه»**(١).

فجميع ما نهى الله عنه [هو] من شعب الكفر وفروعه، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

لكن قد يكون ذلك شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر، بحسب ما يقترن به من الإيمان، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركاً أكبر، وأما إن اتخذ [الإنسان ما يهواه] إلٰهاً من دون الله وأحبه كحب الله فهذا شرك أكبر، والدرجات في ذلك متفاوتة.

وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ما ينجيه من عذاب الله، وهو يقع في كثير من هذه الأنواع، ولا يعلم أنها شرك، بل لا يعلم أن الله حرَّمها،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٨١٣) وأحمد في المسند (٣/ ٣١٤، ٣٣٢، ٣٥٤، ٣٦٨، ٣٨٤) وابن حبان في صحيحه برقم (٦١٨٧) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٢٧٤).

ولم تبلغه في ذلك رسالة من عند الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فهؤلاء يكثرون جدًا في الأمكنة والأزمنة التي تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يُرحمون به، وقد لا يُعذَّبون بكثير مما يعذَّب [به] غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة.

فينبغي أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه، ولهذا لما كثر الجهل وانتشر، زين الشيطان لكثير من الناس أنواعاً من المحرمات ضاهوا بها الحلال، وقد لا يعلمون أنها محرَّمة بغيضة إلى الله، بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به، وقد يظنون أن فيها هذا وهذا، وهم في ذلك يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، وقد يعلمون تحريم ذلك، ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعاً ونفاقاً، فهؤلاء غير المؤمن الذي يحب الله ورسوله ويأتي بالمحرم معتقداً أنه محرم، وهو مبغض له، خائف راج.

وهذه الأمور توجد في الأقسام الثلاثة، ونحن نذكر أمثلة ذلك في المحرمات التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] فالله سبحانه قد حرم الفواحش كما ذكر.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦]، فلم تبح إلا المرأة التي هي زوج أو ملك يمين، وقد ذكر ما اشترطه في الحلال بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

كما في الصحيح عن عائشة قالت: كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء[1]؛ وذكرت أصحاب الرايات، وهن المسافحات، وأن إلحاق النسب في وطئهن كان بالقافة، وذكرت التي يطأها جماعة محصورة، وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة، وذكرت نكاح الاستبضاع، وهو غير نكاح ذوات الأخدان، وذكرت النكاح الرابع، وهو النكاح المعروف، الذي أحله الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥١٢٧) وأبو داود في سننه برقم (٢٧٧٢).

فالشيطان جعل من الحرام ما فيه مضاهاة للحلال، وإن سمِّيَ باسم آخر، لكن المعنى فيه اشتراك، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر، فذوات الأخدان بينهن [وبين أخدانهن] نوع ازدواج واقتران كذلك، ولهذا ميز الله بين هذا وهذا.

وأخفى من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان، وقولهم: إن هذه مؤاخاة لله إذا لم تكن المؤاخاة على فعل الفاحشة كذوات الأخدان؛ فهذا الذي يظهرونه للناس الذين يوافقونهم ويقرونهم على ذلك، ويرون كلهم أن من أحب صبيًّا ـ أو امرأة ـ لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة، فإن هذا محبة لله.

فهذا من الضلال والغي وتبديل الدين، حيث جعل ما كرهه الله محبوباً لله، وهو نوع من الشرك، والمحبوب المعظم بذلك طاغوت.

وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلى المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب في الله، كفر وشرك، كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله، وأن الاجتماع على الفاحشة تعاون على البر والتقوى، وأن الإقامة على ذلك بالعبادة هي عبادة لله، ونحو ذلك.

فاعتقاد أن هذه الأمور التي حرمها الله ورسوله تحريماً ظاهراً، أنها دين الله ومحبة الله، نوع من الشرك والكفر.

ثم قد يكون منها ـ من خفيِّها ـ أشياء تروج على من لم يبلغه العلم، كما اشتبه على كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملاهي تكون عبادة لله، واشتبه على من هو أضعف علماً وإيماناً أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله.

ثم بعد هذا الضلال وما فيه من الغي هم أربعة أقسام:

قوم يعتقدون أن هذا لله ويقتصرون عليه، كما يوجد مثل ذلك في كثير من الأجناد والمتنسكة والعامة.

وقوم يعلمون أن هذا ليس لله، وإنما يظهرون هذا الكلام نفاقاً وخداعاً،

لئلا ينكر عليهم، وهؤلاء من وجه أمثل، لما يُرجى لهم من التوبة، ومن جهة أخبث، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم.

وقوم مقصودهم ما وراء ذلك من الفاحشة الكبرى، فتارة يكونون من أولئك الظالمين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التي لا وطء فيها لله، فيفعلون شيئاً لله، ويفعلون هذا لغير الله، وتارة يكونون من أولئك الغاوين المنافقين الذين يظهرون أن هذه المحبة لله، وهم يعلمون أنها للشيطان، فيجمع هؤلاء بين هذا الكذب وبين الفاحشة الكبرى، وهؤلاء في هذه المخادنة والمؤاخاة يضاهون النكاح، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج ما يشبه اقتران الزوجين، ويزيد عليه تارة، وينقص عنه أخرى، وما يشبه اقتران المتحابين في الله والمتآخين في الله، لكن الذين آمنوا أشد حبّاً لله.

فالمتحابان في الله يعظم تحابهما ويقوى ويثبت، بخلاف هذه المؤاخاة الشيطانية، فإنه يترتب عليها أنواع من الفساد، ثم هذا قد يظهر وينتشر حتى قد يسمونه زواجاً، ويقولون: تزوج هذا بهذا، كما يفعل ذلك بعض المستهزئين بآيات الله من فجار الفساق والمنافقين، ويقره الحاضرون على ذلك ويضحكون، وربما أعجبهم مثل هذا المزاح.

كما أن اعتقاد أن هذه المحبة لله أوجب لمن كان من فجار الفساق والمنافقين أن يقول لهم: الأمرد حبيب الله، والملتحي عدو الله، وذلك يعجبهم ويضحكون منه، وحتى اعتقد كثير من المردان أن هذا حق، وهو داخل في قول النبي ﷺ: «**إذا أحب الله العبد نادى في السماء: يا جبريل إني أحب فلاناً**»[1]، فيصير يعجبه أن يحب ويعتقد الغاوي أنه محبوب.

وذلك أن من فقهاء الكوفة من لا يوجب في اللوطية الحد بل التعزير، إلا إذا أسرف فيه فإنه يبيح قتله سياسة، ومن الفقهاء من يوجب فيه حد الزاني، كأشهر قولي الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقول أبي يوسف ومحمد،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٣٧) والترمذي في سننه برقم (٣١٦١) وأحمد في المسند (٢/ ٣٤١، ٤١٣، ٥٠٩، ٥١٤) والبغوي في شرح السنة برقم (٣٤٧٠).

وأكثر فقهاء الحجاز وأهل الحديث يوجبون قتلهما جميعاً، كمذهب مالك، وظاهر مذهب أحمد.

وزعم بعض الفقهاء أن فجور [الرجل] بمملوكه شبهة في درء الحد، وهو موجب للتعزير، كما هو أحد القولين في وطء أمته المحرَّمة عليه برضاع أو محرَّمته، وأيضاً فالعقوبة بالقتل إنما تكون في حق البالغ، وأما الصبي ـ وأمثاله ـ فيجوز قتله إذا قاتل مع الكفار، فأما بمجرد فعله هو بنفسه فلا يقتل بل يعاقب بما يزجره.

وكذلك النوع الثاني من الحلال، وهو ملك اليمين، فإن المرأة قد تملك الرجل، والرجل قد يملك الصبي، وقد يكون في هذا الملك نوع من ملك الرجل الأمة، فربما استمتعت المرأة بمملوكها بمقدمات النكاح، أو بالنكاح، مضاهاة لاستمتاع الرجل بمملوكته، وربما تأولت القرآن على ذلك، واعتقدت أن ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، كما رفع إلى عمر ابن الخطاب امرأة تزوجت عبدها، وتأولت هذه الآية، ففرَّق بينهما، وأدبه، وقال: ويحك إنما هذه للرجال لا للنساء.

وكذلك كثير من جهَّال الترك وغيرهم قد يملك من الذكران من يحبهم ويستمتع بهم، وقد يتأوَّل بعضهم على ذلك: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، ومن المعلوم أن هذا كفر بإجماع المسلمين، فالاعتقاد بأن الذكران حلال ـ بملك أو غير ملك ـ باطل وكفر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

ثم من هؤلاء من يتأول هذه الآية، ومنهم من يتأول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ولا يفرق بين المنكوح والناكح، كما سألني مرة بعض الناس عن هذه الآية، وكان ممن يقرأ القرآن ويطلب العلم، وقد ظن أن معناها إباحة ذكران المؤمنين.

وآخرون قد يجتمع بهم من يقول لهم: إن في هذه المسألة خلافاً، ويكذب أئمة المسلمين الذين لا تكون مذاهبهم ظاهرة في بلاده، مثل من يكون بأرض الروم فيكذب على مذهب مالك ويقول: هو مباح في مذهب مالك، ومنهم من يقول: هذا مباح للضرورة، مثل أن يبقى الرجل أربعين يوماً، إلى أمثال هذه الأمور التي

خاطبني فيها، وسألني عنها، طوائف من الجند والعامة والفقراء، وكان عندهم من هذه الاعتقادات الفاسدة ألوان مختلفة، قد صدتهم عن سبيل الله.

ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء في وجوب الحد في بعض الصور، فيظن أن ذلك خلاف في التحريم، فربما قال ذلك أو اعتقده، ولا يفرِّق بين الخلاف على الحد المقدَّر والتحريم، وأن الشيء قد يكون من أعظم المحرَّمات، كالدم والميتة ولحم الخنزير، وليس فيه حدٌّ مقدر.

ثم ذلك الخلاف قد يكون قولاً ضعيفاً، فيتولد من ذلك القول الضعيف ـ الذي هو خطأ بعض المجتهدين، وهذا الظن الفاسد الذي هو خطأ بعض الجاهلين ـ ومن الكذب الذي هو فرية بعض الظالمين، تبديل الدين، وطاعة الشياطين، وسخط رب العالمين، حتى نقل أن كثيراً من المماليك يتمدح بأنه لا يعرف إلا سيده، كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها، وكذلك كثير من المردان الأحداث يتمدح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه أو مؤاخيه، كما تتمدح المرأة بأنها لا تعرف إلا زوجها. وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان، قد يتمدح بأنه عفيف عمَّا سوى خدنه، الذي هو قرينة كالزوجة، أو عمَّا سوى مملوكه الذي هو قرينه، كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف [إلا] عن زوجته أو ما ملكت يمينه.

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالمتخذ خدناً من الرجل والنساء أقل شراً من المسافح، لأن الفساد في ذلك أقل، والمستخفي بما يأتيه أقل إثماً من المجاهر المستعلن، كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله**»(١).

وقد قال ﷺ: «**من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة**»(٢).

وفي الحديث: «**إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت الجماعة**»(٣).

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب وقد ستره الله، فيصبح فيتحدث بذنبه، ويقول: يا فلان فعلت الليلة كيت وكيت**»(٤)، أو كما قال.

فالإقلال والاستخفاء خير من هذه الوجوه، ولكن قد يقترن بها ما يكون أعظم من بعض المسافحة والمجاهرة، وهي المحبة والتعظيم التي توجب محبة ما يحبه الخدن، وتعظيم ما يعظمه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، والاستسرار بذلك والنفاق فيه، فقد تكون في هذه الموالاة والمعاداة والنفاق من العدوان والضرر على المسلمين، أعظم مما في المجاهرة والمسافحة، ويكون ذلك بمنزلة الكافر المعلن كفره، وهذا بمنزلة المنافق، فأمّا إذا لم يكن عدوان على الناس وتضييع لحقوقهم لانتفاء المحبة أو لغير ذلك، فالأول أخبث وأفحش، وتفاوت الشرور في القدر والصفة كثير، كما يتفاضل الخير أيضاً في القدر والوصف، والواجب استعمال الكتاب والسنة في جميع الأمور.

ولا ريب أن هذه المخادنة وملك اليمين ونحو ذلك مما فيه اشتراك في

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٩٩) وأبو داود في سننه برقم (٤٩٤٦) والترمذي في سننه برقم (١٤٢٥) وابن ماجه في سننه برقم (٢٢٥) وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤).

(٣) عزاه في الجامع الكبير للديلمي عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٦٩) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩١).

محرم مضاد للحلال، لا بد أن يتضمن من المباح ما يصير فيه من الشبه بالحلال، و[من] التمييز عن الحرام المحض ما يكون فيه رواج له، إذ الحرام المحض من كل وجه لا يشتبه بالحلال المحض من كل وجه، بل يقتنى الرجل المملوك لنوع من الاستخدام، ويضم إلى ذلك الاستمتاع وقد يكون هذا أغلب في نفسه من الآخر، وقد يكون بالعكس، وذلك الاستخدام قد يكون مباحاً في الشريعة، وقد يكون فيه نوع من الظلم والعدوان، إما باسترقاق الأحرار، وإما باشتراء المماليك لنفسه بالمال المغصوب من بيت المال أو غيره، وإما في استخدامهم على وجه الكبرياء والعلو في الأرض بإذلاله لهم في غير طاعة الله، وإذلال الناس بهم في غير طاعة الله، إلى أمثال ذلك من الوجوه التي يكون فيها من الظلم والعدوان أمور عظيمة، وينضم إلى ذلك الفاحشة.

وكذلك في المخادنة التي صورتها مؤاخاة، قد تكون لأجل الاستئجار لصناعة ونحوها، وقد تكون لتعلم صناعة أو كتابة أو قراءة أو علم أو تأديب وتنوير، وغير ذلك من الأمور المباحة والمستحبة والواجبة في الدين، وقد تكون لكفالة وتربية، إما ليتم ذلك الصبي أو غربته، أو لقرابة بينهما، أو غير ذلك، وقد يكون اشتراكاً محضاً في صناعة أو تجارة أو بحمل مال، أو مجاورة وصلة، أو تعلم أو تأدب أو غير ذلك مما يشترك الناس فيه لغير فاحشة بشركة مباحة أو مأمورٍ بها أو منهيٍّ عنها، ويكون بينهم في ذلك من التعاقد والتحالف ما يكون بين المشتركين في الأمور، وقد يسمى ذلك صديقاً ورفيقاً، وسمي بالتركية خوشداشا وغير ذلك، وهو من قسم التحالف، فيكون بين المشتركين في الحلال والحرام من المعاوضة والمشاركة، [إمّا] على غير فاحشة، وإمّا معاوضة بتلك، فتكون شبهة مع الشهوة، فغالب وقوع المحرمات من هذا الباب، وقد لُبِّس فيه الحق بالباطل، وأشرك فيه الحق بالباطل.

والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، فيفرِّق [بين] أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدم ما هو أكثر خيراً وأقل شرًّا على ما هو دونه، ويدفع أعضم الشرين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين، لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله

وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وإذا عرف ذلك فلا بد أن يقترن بعلمه العمل الذي أصله محبته لما يحبه الله ورسوله، وبغضه لما يبغضه الله ورسوله، وما اجتمع فيه الحبيب والبغيض، المأمور به والمنهي عنه، أو الحلال والمحظور، أعطى كل ذي حق حقه ليقوم الناس بالقسط، فإن الله بذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل، فالعلم بالعدل قبل فعل العدل.

فإذا علم وأحب، كان من تمامه الجهاد عليه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والعلم هو طريق إلى العمل وسبب، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] أي علماً.

فالعلم بالخير سبب إلى فعله، والعلم بالشر سبب إلى منعه، هذا مع حسن النية، وإلا فالنفس الأمَّارة بالسوء قد يكون علمها بالسوء سبب لفعله، وبالخير سبب لمنعه، وكذلك الإثم والبغي بغير الحق، مثل الخمر الذي اتخذ منه أنواع من المسكرات، وقيل: إنها حلال، وسمِّيت بغير أسماء الخمر، وهي من الخمر.

وكذلك ظلم العباد في النفوس والأموال والأعراض، فيه ما قد سمي حقًّا وعدلاً، وشرعاً وسياسة وجهاداً في سبيل الله، وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يحصيه إلا الله، وكذلك الإشراك بالله بغير حق، والقول بما لا يعلم، مثل أنواع الغلو في الدين، واتخاذ العلماء والعباد أرباباً من دون [الله، والقول] بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وأنواع الإشراك بالمخلوقات: عبادة لها، واستعانة بها، وغلوًّا فيها، وقولاً على الله في أسمائه وصفاته وأحكامه ما قد دخل في ذلك من الباطل الذي سمي بأسماء محمودة أو غير مذمومة: كالعبادة، والزهادة، والتحقيق، وأصول الدين، والفقه، والعلم، والتوحيد، والكلام، والفقر والتصوف ما لا يحصيه إلا الله.

ومما ينبغي أن يعرف أن كل تبديل يقع في الأديان، بل كل اجتماع في العالم، لا بد فيه من التحالف، وهو الاتفاق والتعاقد على ذلك، من اثنين فصاعداً، فإن بني آدم لا يمكن عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم، فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف.

ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التي اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض، وإن كان منهم القادر الذي لا يوفى بذلك، كما اتفقوا في إيجاب العدل و الصدق، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذي يحبونه، ودفع الأمر الذي يكرهونه، أعان بعضهم بعضاً على اجتلاب المحبوب، ونصر بعضهم بعضاً على دفع المكروه، ولو لم يتعاقدوا بالكلام، فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك، ودفع ما يضره، كأهل النسب الواحد، وأهل البلد الواحد، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة، ودفع الضرر المشترك.

فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم، وتارة يثبت بفعل الله تعالى.

وقد جمع الله عز وجل هذين الأصلين في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: ١]، وذكر في هذه السورة [الأمور] التي بينهم من جهة الخلق، وهي من جهة العقود، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ [الفرقان: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الآية [الرعد: ٢٠ ـ ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧].

وإذا كان لا بد في كل ما يشتركون فيه، من تحالف وغير تحالف، من التعاون على جلب المحبوب، والتناصر لدفع المكروه، فالمحبوب هو الموالي، والمكروه هو المعادي، فلا بد لكل بني آدم من ولاية وعداوة، ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة؛ فإن السماحة إعانة على وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك، والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره، ولا قوام لشيء من أمور بني آدم إلا بذلك، ومبنى ذلك بينهم على العدل في المشاركات والمعاوضات.

فظهر أن جميع أمور بني آدم لا بد فيها من تعاون بينهم، ودفع ومنع

لغيرهم، فلا بد لهم من عقد وقدرة، والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١] أي: يتعاهدون ويتعاقدون، والقدرة: القدرة.

ومعلوم أنه لا بد في كل فعل من إرادة وقدرة، والمشتركون لا بد من اتفاقهم في إرادة وفي قدرة، فالذي يناله بعضهم من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض، هو بالإرادة والطوع، والذي ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه، وهو بالقدرة على ذلك العدو المكروه منه، كما أن الوطء بملك النكاح الذي هو عقد، أصله الإرادة والطوع، وبملك اليمين، الذي هو قهر بالقدرة على سبيل الكره، واشتراكهم في الجلب والدفع إما أن يكون تبعاً لتعاقدهم، وإما أن يكون بأمر آمر مطاع فيهم، فالأول: هو التحالف. والثاني: ما يطاع بغير تحالف، سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق.

فالذي بحق ما أمر الله بطاعته من أنبيائه وأولي الأمر من المؤمنين، وطاعة الوالدين، ونحو ذلك، وما يجاب به بعضهم إلى مراد بعض بحق، فإن ذلك هو معنى الطاعة، إذ المقصود بها موافقة المطلوب.

وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت، وهو كل ما عظم بباطل.

وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع في جميع أمورهم، فلا بد لهم من التعاقد والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع.

ولهذا كانت الشريعة المنزلة من عند الله الأفعال فيها التي تجب لله، وتجب لبعض الناس على بعض: تارة تجب بإيجاب الله، وتارة تجب بالعقد: كالنذر، وكعقود المفاوضات والمشاركات، فلا واجب في الشريعة إلا بشرع أو عقد.

وإذا لم يكونوا على شريعة منزَّلة من عند الله، فإما أن يكونوا على شريعة [غير] منزلة أو سياسة وضعها بعض المعظَّمين فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك، وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم، فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة آمرٍ متحالفون عليه، أو يأمرهم به من يطيعونه، ولهذا أنكر التحالف في الأمم الخارجة عن الشريعة، وفي الخارجين عنها، وفي الأمور التي لا تُرَدّ إلى الشريعة، وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة، فيتحالف قوم على طاعة ملك أو شيخ، أو طاعة بعضهم لبعض في أمور يتفقون عليها ويتحالفون،

كما كان العرب في جاهليتهم يتحالفون، ومنه الحليف الذي يكون في القبيلة فيصير منهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٢].

وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخي وغير التآخي للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق، وسائر المتفقين على بعض الأمور، هو داخل في هذا. وأيمان التعاقد والتحالف عام لبني آدم، وهم في جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفاً يحبه الله، كما قال النبي ﷺ: «**لقد شهدت حلفاً مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان ما يسرني بمثله حمر النعم، ـ أو قال: [ما] يسرني حمر النعم ـ وأن أنقضه، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت**»(١).

وفي مثل هذا ما رواه [مسلم] عن [جبير بن مطعم، عن] النبي ﷺ أنه [قال]: «**لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة**»(٢).

وهذا الحلف يسمي حلف المطيبين، كان يقدم إلى مكة من يظلمه بعض أكابرها، فيستصرخ فلا ينصره أحد، حتى أنشد بعض القادمين:

يا آل مكة مظلوم بضاعته ... ببطن مكة بين الركن والحجر

وكان عبد الله بن جدعان من خيارهم، فاجتمعت قبائل من قريش في بيته

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٣٧٤) والبيهقي في سننه (٦/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٣٠) وأبو داود في سننه برقم (٢٩٢٥) والنسائي في سننه الكبرى (٤/ ٩٠) وأحمد في المسند (٤/ ٨٣).

على التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم، ووضعوا أيديهم في قصعة فيها طيب، فسمي حلف المطيّبين.

فأما إذا كان القول على الشريعة التي بعث الله بها رسوله في دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن التحالف إلا عليها، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم، كما وصف الله به المحبين المحبوبين في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعلى ذلك يبايع المطاعون فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم، كما قال أبو بكر الصديق في خطبته للمسلمين: «أطيعوني ما أطعت الله [ورسوله]، فإذا عصيت الله [ورسوله] فلا طاعة لي عليكم».

وبذلك أمر الله ورسوله في طاعة أولي الأمر، فقال النبي ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة، في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، ما لم يؤمر بمعصية الله، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة**»(١). وقال النبي ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»(٢)، و«**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(٣).

وفي الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب بيعته إلى عبد الملك بن مروان لما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧١٩٩ ـ ٧٢٠٠) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٠٩) والنسائي في سننه (٧/ ١٣٨) وأحمد في المسند (٥/ ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١) وابن حبان في صحيحه برقم (٤٥٤٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه بلفظ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في اليسر والعسر، والمنشط والمكره. . .» الحديث، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٤٠) وأبو داود في سننه برقم (٢٦٢٥) والنسائي في سننه (٧/ ١٠٩) وأحمد في المسند (١/ ٨٢، ٩٤، ١٢٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٦٦) وغيره وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٩).

اجتمع الناس عليه: «لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إني قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وقد أقَرَّ بَنِيَّ لما أقررت به»[1].

فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له في طاعة الله بحسب قدرته، وهذا واجب عليه بالشرع.

فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول في الإسلام، وبيعة النبي ﷺ، كما بايعه الأنصار، وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة، وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلِّقنهم: «**فيما استطعتم**»[2].

وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك: معاقدة على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

لكن هذا إنما كان ظاهراً في أيام الخلفاء الراشدين، وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة، والمخالفة لها أخرى، فلا جرم كان الحكم العام في جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعةً لله، ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله، كما قال النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «**ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط، كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق**»[3] وقال ﷺ: «**من**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٧٢٠٣، ٧٢٠٥، ٧٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٠٢) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٦٧) والترمذي في سننه برقم (١٥٩٣) وأبو داود في سننه برقم (٢٩٤٠) والنسائي في سننه (٧/ ١٥٢) وأحمد في المسند (٢/ ٩، ٦٢، ٨١، ١٠١، ١٣٩) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٤٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٢١٥٥، ٢٥٦١، ٢٥٦٣، ٢٧١٧) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٠٤) وأبو داود في سننه برقم (٢٢٣٣، ٢٩٣٠) والترمذي في سننه برقم (١١٥٤) والنسائي في سننه (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥) وابن ماجه في سننه برقم (٢٥٢١) وأحمد في المسند (٦/ ٨١، ٨٢، ٢١٣، ٢٧٢).

نذر أن يطيع [الله] فليطعه، ومن نذر أن يعصي فلا يعصه»[1]، وفي السنن: **«المسلمون على شروطهم، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً»**[2].

فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرِّب إليه، فليس لعقود بني آدم فيه أثر، بل المرجع في ذلك إلى أمر الله ورسوله، فلا دين إلا ما أمر الله به، ومن اتبع في ذلك عقود بني آدم، فهم الذين اتبعوا شركاءهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله به، وهذه حال جميع ما ابتدع من الدين، فإن الذي ابتدعه وافقه عليه غيره وحالفه، فاتخذوه ديناً فتدين هذا فيه يظهر حال جميع [أهل] البدع المخالفة للكتاب والسنة، وأن الموافقة عليها هي من هذا الباب.

وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل، إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم، وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به، و التبديل لدين الله بما لُبِّس من الحق بالباطل، وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال، فإنهم عدلوا عمَّا أمرهم الله باتباعه، فلبَّسوه بباطل ابتدعوه، بدَّلوا به دين الله، وتحالفوا على ذلك الذي ابتدعوه.

وأما المعاملات في الدنيا فالأصل فيها أنه لا يَحْرُم منها إلا ما حرَّمه الله ورسوله، فلا حرام إلا ما حرَّم الله، ولا دين إلا ما شرعه. وإذا لم يَحْرُم إلا ما حرَّمه الله ورسوله، فكأن ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد، فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاوضين والمتشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له، ولهذا قال النبي ﷺ: **«المسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحلَّ حراماً، أو حرّم حلالاً»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) وأبو داود في سننه برقم (٣٢٨٩) والترمذي في سننه برقم (١٥٢٦) والنسائي في سننه (٧/ ١٧) وابن ماجه في سننه برقم (٢١٢٦) وأحمد في المسند (٦/ ٣٦، ٤١، ٢٢٤) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٤٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٥٩٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٠٦٣).

(٣) تقدم تخريجه.

وهذا الموضع كثر فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرِّمها الله، كما كثر في الأول غلط كثير من العباد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله، وإيجابه بالتعاقد عليه، حتى يوجبون طاعة شخص معين ميتٍ أو حيّ من العلماء في كل شيء، ويحرِّمون طاعة غيره في كل شيء نازعه فيه، لمجرد عقد العامي الذي انتسب إلى هذا دون هذا.

وكذلك في المشايخ، حتى قد يأمرونه بمخالفة ما تبيَّن له من الشريعة لأجل العقد الذي التزمه للمذهب والطريقة، فيشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، ويأمرون بطاعة المخلوق في معصية الخالق، وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد الظاهر الذي فيه نوع من اتباع الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

والواجب في جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب اتباعه، وما اشتبه على الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم.

فإذا كان جميع ما عليه بنو آدم لا بد فيه من تعاون وتناصر، وفيه ما هو شرك بالله، وفيه ما هو قول على الله بغير علم، وفيه ما هو إثم وبغي، وفيه ما هو من الفواحش علم أنه لا بد في الإيمان من التعاون والتناصر على فعل ما يحبه الله تعالى، ودفع ما يبغضه الله تعالى، وهذا هو الجهاد في سبيله، وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك، كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك.

فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون، ولكن في سبيل الله تارة، وفي سبيل غير الله تارة، ولا صلاح لبني آدم إلا بأن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم الله، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولّي بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]. ولا يتم

لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه، ويفرق بين ما فرّق الله بينه، وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة، التي مبناها على المحبة والبغضة.

فالموالاة تقتضي التحاب والجمع، والمعاداة تقتضي التباغض والتفرق.

والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١] ثم ذكر حال المستنصرين بهم فإن الموالاة موجبها التعاون والتناصر.

فلا يُفرَّق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض، مثل الأنساب والبلدان، والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك، بل يعطى كلٌّ من ذلك حقه، كما أمر الله ورسوله، ولا يجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه، فإنّ دين الله هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

والله سبحانه أرسل رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط، فيحتاج المؤمن إلى معرفة العدل، وهو الصراط المستقيم، وإلى العمل به، وإلا وقع إما في جهل وإما في ظلم.

وذلك إنما وقع من التبديل والعقود الفاسدة، كما ذكرنا من لبس الحق بالباطل، حيث صارت المحرَّمات من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، والقول على الله بغير علم ـ قد لبِّس بها من الحق المأذون فيه ما صارت بسببه شبيهة للحق الحسن، وإن كانت مشتملة مع ذلك على الباطل السيء، وإن صار أصحابها بين عمل صالح وآخر سيء، فقوم ينكرون ذلك كله لما علموا فيه من المنكر البغيض، وأقوام يقرون ذلك كله لما فيه من المحبوب.

وهذه القاعدة قد ذكرناها غير مرة، وهي اجتماع الحسنات والسيئات، والثواب والعقاب، في حق الشخص الواحد، كما عليه أهل جماعة المسلمين من

جميع الطوائف، إلا من شذ عنهم من الخوارج والوعيدية، من المعتزلة ونحوهم، وغالب المرجئة.

فإن هؤلاء ليس للشخص عندهم إلا [أن] يثاب أو يعاقب، محمود من كل وجه، أو مذموم من كل وجه. وقد بيَّنا فساد هذا في غير هذا الموضع، بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وذكرنا أيضاً الكلام في الفعل الواحد نوعاً وشخصاً.

والغرض هنا أن هؤلاء الذين لبَّسوا الحق والباطل، حصل في مقابلتهم من أعرض عن الحق والباطل جميعاً، فصار هؤلاء مذمومين على فعل السيئات، محمودين على فعل الحسنات، وأولئك يذمُّون على ترك الحسنات الواجبات، ويمدحون على ما قصدوا تركه لله من السيئات.

وسبب ذلك أن الإنسان فيه ظلم وجهل، فإذا غلب عليه رأي أو خلق، استعمله في الحق و الباطل جميعاً، لم يحفظ حدود الله، ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده.

مثال ذلك: أن من الناس من يكون في خلقه سماحة ولين ومحبة، فيسمح بمحبته وبتعظيمه ونفعه وماله للحسن الذي يحبه الله ويأمر به، كمحبة الله ورسوله وأوليائه المؤمنين، والإنفاق في سبيله، و نحو ذلك. ويسمح أيضاً بمحبة الفواحش والإنفاق [فيها]، فتجده يحب الحق والباطل جميعاً، ويصدِّق بهما، ويعين عليهما.

ومنهم من يكون في خلقه قوة، فيمتنع من فعل الفواحش ويبغضها، ويمتنع مع ذلك من محبة نفع الناس والإحسان إليهم والحلم عن سيئاتهم، فتجده يبغض الحق والباطل جميعاً، ويكذِّب بهما، ولا يعين على واحد منهما، بل ربما صدّ عنهما.

وذلك لأن النفس أمَّارة بالسوء، والشيطان يزيِّن للمرء سوء عمله فيراه حسناً، وهو متبع هواها، وما فيها من العلم والإيمان [يدعوه إلى الخير حتى] تذهب الحسنات بالسيئات، وإنما يفعل من الحسنات ما أقبلت عليه إرادته ومحبته دون ما أبغضته.

وفي الإنسان قوتان: قوة الحب، وقوة البغض، وإنما خلق ذلك فيه ليحب الحق الذي يحبه الله، ويبغض الباطل الذي يبغضه الله، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه.

والنفس تميل إلى الإشراك بحسب الإمكان، فإذا غلب على النفوس قوة المحبة لما يناسبها، فأحبت الحق، فقد تنجذب بسبب ذلك إلى محبة ما يقارنه من الباطل.

ومن هنا مال كثير من النساك إلى محبة الأصوات والصور وغير ذلك، بسبب ما فيهم من المحبة، التي فيها ما هو لله، لكن لبَّسوا فيها الحق بالباطل. وكذلك قد يكون الشخص بالمحبة يميل إلى شهوات الغي في بطنه وفرجه وإنفاق الأموال فيها، ثم إنه بسبب ما فيه من الحب والدين يحب الحق وأهله ويعظمهم. فتجد كثيراً من أهل الشهوات، وفيهم من المحبة لله ورسوله ما لا يوجد في كثير من النساك، كما قال النبي ﷺ في حمار الذي كان يشرب الخمر كثيراً: «**لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله**»(١) والحديث في صحيح البخاري وغيره.

فصل

وإذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة، والمقصود [منه] التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته، فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد، كما أن التعذب والتألم هو المكروه أولاً [وهو سبب] كل بغض وكل حركة امتناع، لكن وقع الجهل والظلم في بني آدم، فعمدوا إلى الدين الفاسد والدنيا الفاجرة: طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها ديناً، أو لا يتخذونها ديناً، والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق، أو دين باطل، فنقول: النعيم التام هو في الدين الحق.

فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل، كما أخبر الله بذلك في

---

(١) تقدم تخريجه.

كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

وقوله عن المتقين المهتدين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الإنفطار: ١٣ ـ ١٤].

ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا، وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام.

ولكن تذكر هنا نكتة نافعة، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعَّمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للتقوى، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣] وهو ممن يصدِّق بالقرآن ـ حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أمّا الدنيا فما نرى بأعيننا [إلا] أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين، ولهم العزة والنصرة، والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق،

فيقول: أنا على الحق وأنا مغلوب، وإذا ذكره [إنسان] بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال: هذا في الآخرة فقط.

وإذا قيل له: كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور؟ قال: يفعل ما يشاء، وربما قال بقلبه أو لسانه، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم، وربما ذكر قول بعضهم: ما على الخلق أضر من الخالق، لكن يقول: يفعل الله ما يشاء، وإذا ذكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا، أنه يفعل ما يشاء.

فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيده، بل [يعتقدون أن الله] يفعل ما يشاء.

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين: إحداهما: حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نهى عنه في الدين الحق، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك، أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً، [لأنه] ترك المأمور وفعل المحظور.

والمقدمة الثانية: أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا، فلا ينبغي الاغترار بهذا.

ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا، فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر، وجلب المنفعة، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح، فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق، وفي حال السابقين والمقربين، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين، فيدخل مع الظالمين، بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه، كما قال النبي ﷺ: **«يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**[1]، وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه، ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١١٨) والترمذي في سننه برقم (٢١٩٥) وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٤، ٣٧٢، ٣٩٠، ٣٩١، ٥٢٣) والبغوي في شرح السنة برقم (٤٢٢٣).

وهذه الفتنة التي صدت أكثر بني آدم من تحقيق الدين، وأصلها الجهل بحقيقة الدين، وبحقيقة النعيم، الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت، إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعِّم، فهناك عمل يطلب به النعيم، ولا بد أن يكون المرء عارفاً بالعمل الذي يعمله، وبالنعيم الذي يطلبه.

ثم إذا علم هذين الأصلين، فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة، والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة: ٢٤].

فاليقين هو العلم الثابت المستقر، والصبر [لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة].

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده، فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور، تارك للمحظور، [وهو على العكس من ذلك]، وهذا يكون من جهله بالدين الحق.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر ـ فهذا من جهله بوعد الله تعالى.

أما الأول، فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرَّم ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه، فهو لا يرى إلا محاسنها، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول.

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

وأما الثاني، فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر، ويكذّب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بيّن بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢٠ ـ ٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء، فقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ (٥٣)﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾ [المنافقون: ٨].

وقال تعالى في كتابه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)﴾ [فاطر: ١٠].

وقال في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾ [الفتح: ٢٨].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ [الفتح: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى لما قص قصة نوح، وهي نصره على قومه في الدنيا، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨] إلى قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وقد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو عمل الناس كلهم بهذه**

الآية لوسعتهم»[1] رواه ابن ماجه وغيره.

وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٦/ ٤٩٤) وابن ماجه في سننه برقم (٤٢٢٠) وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩) وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه برقم (٩٢٦).

[وقال تعالى]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى، وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية، وأمرنا بالاستغفار والصبر، لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم، مثل ظهور العدو، وكما قال تعالى في قصة أُحد: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١].

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [النور: ٣٤].

وهذا يتبين بأصلين: أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم

لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجره ومن أنواع الأذى، وذلك أن الخلق كلهم يموتون، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس، بل الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبله ليس مما يختص بالقتال، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره، ومن جوع وغيره، وبأسباب خاصة، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل، بل الأمر بالعكس، كما قد جرَّبه الناس.

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٦ ـ ١٧].

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لا بد من الموت.

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة، وليس له من دون الله ولي ولا نصير، فأين نفر من أمره وحكمه؟ ولا ملجأ منه إلا إليه، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته، كما قال أبو حازم الحكيم: «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق، أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى».

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاء، كما قيل للنبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه في سننه برقم (٤٠٢٣) وأحمد =

ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك، حتى إنه قيل: لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين، ولما كان موسى أفضل من هؤلاء، وكذلك محمد، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [القصص: ٤٨] إلى قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩].

وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين، وشريعة محمد ﷺ أكمل، فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤].

وقال تعالى للمنافقين: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾ [التوبة: ٥٢].

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه: أحدها: أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله، لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

= في المسند (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) والدارمي في سننه برقم (٢٧٨٣) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٤٩).

الثاني: أن ذلك أنفع للكفار أيضاً، فإنهم قد يؤمنون من الخوف، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضاً، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة: «وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة»(١) فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذِّبين له، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره.

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال: «**لا، أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له**»(٢).

الوجه الثالث: أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله، وأكثر لهم، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك، وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد، وكذلك إقامة الحدود.

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه، فلو بلغت هذه النفوس [النصر] بالدعاء ونحوه من غير جهاد، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمّا أهلك نفوسهم وأموالهم.

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعاً، لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء.

وأما الأصل الثاني: فإن التنعم [إما] بالأمور الدنيوية، وإما بالأمور الدينية.

فأما الدنيوية فهي الحسية: مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك، والنفسية: وهي الرياسة والسلطان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٥٧) والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ٣١٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٣١، ٧٣٨٩) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٩٥).

فأما الأولى: فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون في جنسها، ثم يعلم أن التنعيم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بني آدم، بل هم متفاوتون في قدرها ووصفها تفاوتاً عظيماً.

فإن من الناس من يتنعّم بنوع من الأطعمة والأشربة الذي يتأذّى بها غيره، إما لاعتياده ببلده، وإما لموافقته مزاجه، وإما لغير ذلك.

ومن الناس من يتنعم بنوع من المناكح لا يحبها غيره، كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعم بنكاح السُّمر، ومن سكن البلاد الشمالية فإنه يتنعم بنكاح البيض.

وكذلك اللباس والمساكن، فإن أقواماً يتنعمون من البرد بما يتأذّى به غيرهم، وأقواماً يتنعمون [من المساكن] بما يتأذّى به غيرهم، بحسب العادة والطباع.

وكذلك الأزمنة، فإنه [في] الشتاء يتنعم الإنسان بالحر، وفي الصيف يتنعم بالبرد.

وأصل ذلك أن التنعم في الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها، فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التنعم واللذة أكمل، والله قد أباح للمؤمنين الطيبات.

فالذين يقتصدون في المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين فيها، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة، مع أنهم قد لا يصبرون عنها، وتكثر أمراضهم بسببها.

وأما الدين فجماعه شيئان: تصديق الخبر، وطاعة الأمر.

ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيماً بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب.

وأما طاعة الأمر، فإن من كان ما يؤمر به صلاحاً وعدلاً ونافعاً يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع.

وهذا من الفرق بين الحق والباطل، فإن الله سبحانه يقول في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمد: ١ ـ ٣].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: ٣٩].

وتفصيل ذلك أن الحق نوعان: حق موجود، وحق مقصود. وكل منهما ملازم للآخر.

فالحق الموجود هو الثابت في نفسه، فيكون العلم به حقًّا، والخبر عنه حقًّا.

والحق المقصود هو النافع، الذي إذا قصده الحي انتفع به، وحصل له النعيم.

فصل

ومما يظهر الأمر ما ابتلى الله به عباده في الدنيا من السراء والضراء، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك، ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراماً مطلقاً، وليس إذا [ما] قدر عليه رزقه يكون ذلك إهانة، بل هو ابتلاء في الموضعين، وهو الاختبار والامتحان، فإن شَكَرَ الله على الرخاء، وصبر على الشدة، كان كل واحد من الحالين خيراً له، كما قال النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيراً له**»[1]، وإن لم يشكر ولم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٩٩) وأحمد في المسند (٤/ ٣٢٢، ٣٣٣) والدارمي في سننه برقم (٢٧٧٧).

يصبر كان كل واحد من الحالين شرًّا له.

وقد تنازع الناس فيما ينال الكافر في الدنيا من التنعم، هل هو نعمة في حقه أم لا؟ على قولين. وكان أصل النزاع بينهم هو النزاع في القدرة.

والقدرية الذين يقولون: لم يرد الله لكل أحد إلا خيراً له بخلقه وأمره، وإنما العبد هو الذي أراد لنفسه الشر بمعصيته، وبترك طاعته التي يستعملها بدون مشيئة الله وقدرته أراد لنفسه الشر.

وهؤلاء يقولون: ما نُعِّم به الكافر فهو نعمة تامة، كما نُعِّم به المؤمن سواءً، إذ عندهم ليس لله نعمة خص بها المؤمن دون الكافر أصلاً، بل هما في النعم الدينية سواء، وهو ما بيَّنه من أدلة الشرع والعقل، وما خلقه من القدرة والألطاف، ولكن أحدهما اهتدى بنفسه بغير نعمة أخرى خاصة من الله، والآخر ضل بنفسه من غير خذلان يخصه من الله، وكذلك النعم الدنيوية هي في حقهما على السواء.

والذين ناظروا هؤلاء من أهل الإثبات ربما زادوا في المناظرة نوعاً من الباطل، وإن كانوا في الأكثر على الحق، فكثيراً ما يرد مناظر المبتدع باطلاً عظيماً بباطل دونه.

ولهذا كان أئمة السنة ينهون عن ذلك، ويأمرون بالاقتصاد ولزوم السنة المحضة، وأن لا يرد باطل بباطل.

فقال كثير من هؤلاء: ليس لله على الكافر نعمة دنيوية، كما ليس له عليه نعمة دينية تخصه، إذ اللذة المستعقبة ألماً أعظم منها ليست بنعمة، كالطعام المسموم، وكمن أعطى غيره أموالاً ليطمئن ثم يقتله أو يعذبه.

قالوا: والكافر كانت هذه النعم سبباً في عذابه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ

إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥].

وخالفهم آخرون من أهل الإثبات للقدر أيضاً، فقالوا: بل لله على الكافر نعم دنيوية.

والقولان في عامة أهل الإثبات من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

قال هؤلاء: والقرآن قد دل على امتنانه على الكافر بنعمه، ومطالبته إياهم بشكرها، فكيف يقال ليست نعماً؟ قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩] إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وكيف يكون كفوراً من لم ينعم عليه بنعمه؟

فالمراد لازم قول هؤلاء: أن الكفار لم يجب عليهم شكر الله إذ لم يكن قد أنعم عليهم عندهم، وهذا القول يُعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام، فإن الله ذم الإنسان بكونه كفوراً غير شكور، إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

وقد قال صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢].

[وقال] الأولون: قد قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] والكفار لم يدخلوا في هذا العموم، فعلم أنهم خارجون عن النعمة.

وقال تعالى في خطابه للمؤمنين: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٨١] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[وقال تعالى]: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأما الكفَّار فخوطبوا بها من جهة ما هي تنعم ولذة وسرور، ولم تسم في حقهم نعمة على الخصوص، وإنما تسمى نعمة باعتبار أنها نعمة في حق عموم بني آدم، لأن المؤمن سعد بها في الدنيا والآخرة، والكافر ينعَّم بها في الدنيا.

وذلك أن كفر الكافر نعمة في حق المؤمنين، فإنه لولا وجود الكفر والفسوق والعصيان لم يحصل [جهاد المؤمنين للكفار وأمرهم الفساق والعصاة بالمعروف ونهيهم إياهم عن المنكر]، ولولا وجود شياطين الإنس والجن لم يحصل للمؤمنين من بعض هذه الأمور ومعاداتها ومجاهداتها ومخالفة الهوى فيها ما ينالون به أعلى الدرجات وأعظم الثواب.

والإنسان فيه قوة الحب والبغض، وسعادته في أن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، فإن لم يكن في العالم ما يبغضه ويجاهد أصحابه لم يتمّ إيمانه وجهاده، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

قالوا: ولو كانت هذه اللذات نعماً مطلقة لكانت نعمة الله على أعدائه في الدنيا أعظم من نعمته على أوليائه.

قالوا: ونعمة الله التي بدَّلوها كفراً هي إنزال الكتاب وإرسال الرسول، حيث كفروا بها وجحدوا أنها حق، كما قال عليه السلام: «**ألا [لا] فخر إني من**

قريش»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسل، وتلك نعمة الله المعظَّمة.

وقال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وحقيقة الأمر أن هذه الأمور فيها من التنعم باللذة والسرور في الدنيا ما لا نزاع فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وهذا أمر محسوس.

لكن الكلام في أمرين:

أحدهما: هل هي نعمة أم لا؟ والثاني: أن جنس تنعم المؤمن في الدنيا بالإيمان وما يتبعه: هل هو مثل تنعم الكافر، أو دونه، أو فوقه؟ وهذه هي المسألة المقدّمة.

فأما الأول فيقال: اللذات في أنفسها ليست نفس فعل العبد، بل قد تحدث عن فعله مع سبب آخر، كسائر المتولدات التي يخلقها الله تعالى بأسباب منها فعل العبد.

لكن اللذات تارة تكون بمعصية من ترك مأمور، أو فعل محظور، كاللذة الحاصلة بالزنا، وبموافقة [الفساق]، وبظلم الناس، وبالشرك، والقول على الله بغير علم، فهنا المعصية هي سبب للعذاب الزائد على لذة الفعل، لكن ألم

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، لكن جاءت أحاديث كثيرة يبيّن فيها النبي ﷺ أنه من قريش، وانظر على سبيل المثال صحيح مسلم برقم (٢٢٧٦).

العذاب قد يتقدم، وقد يتأخر، وهي تشبه أكل الطعام الطيب الذي فيه من السموم ما يمرض أو يقتل، ثم ذلك العذاب يمكن دفعه بالتوبة وفعل حسنات أخر، لكن يقال؛ تلك اللذة الحاصلة بالمعصية لا تكون معادلة لها ما في التوبة عنها والأعمال الصالحة من المشقة والألم. ولهذا قيل: ترك الذنب أمرّ من التماس التوبة، وقيل: رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

لكن فعل التوبة والحسنات الماحية قد يوجب من الثواب أعظم من ثواب ترك الذنب أولاً، فيكون ألم التائب أشد من التارك إذا استويا من جميع الوجوه، وثوابه أكثر.

وكذلك لما يكفّر الله به الخطايا من المصائب مرارة تزيد على حلاوة المعاصي.

وتارة تكون اللذات بغير معصية من العبد، لكن عليه أن يطيع الله فيها، فيتجنب فيها ترك مأموره وفعل محظوره، كما يؤتاه العبد من المال والسلطان، ومن المآكل والمناكح التي ليست بمحرّمة.

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»[١]، وفي الأثر: «**الطاعم الشاكر كالصائم الصابر**»[٢] رواه ابن ماجه عن النبي ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨].

ولما ضاف النبي ﷺ أبا الهيثم بن التَّيِّهان وجلسوا في الظل، وأطعمهم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٣٤) والترمذي في سننه برقم (١٨١٧) وأحمد في المسند (٣/ ١٠٠، ١١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٨٦) وابن ماجه في سننه برقم (١٧٦٤) وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٣، ٢٨٩) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٨٣٢) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (١٤٢٧).

فاكهة ولحماً، وسقاهم ماء بارداً، قال: «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه**»[1].

والسؤال عنه لطلب شكره، لا لإثم فيه، فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه، وعليه أن لا يستعين بطاعته على معصيته، فإذا ترك ما وجب عليه في نعمته من حق، واستعان بها على محرم، صار فعله بها وتركه لما فيها سبباً للعذاب أيضاً، فالعذاب استحقه ـ بترك المأمور وفعل المحظور ـ على النعمة التي هي من فعل الله تعالى، وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره: بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه.

فإن حقيقة الأمر أنه نعّم العبد تنعيماً، وكان ذلك التنعيم سبباً لتعذيبه أيضاً، فقد اجتمع في حقه تنعيم وتعذيب، ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته، حيث لم يؤد حق النعمة، ولم يتق الله فيها.

وعلى هذا، فهذه التنعمات هي نعمة من وجه دون وجه، فليست من النعم المطلقة، ولا هي خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيدها، فباعتبار ما فيها من التنعم يصلح أن يطلب حقها من الشكر وغيرها، وينهى عن استعمالها في المعصية، فتكون نعمة في باب الأمر والنهي، والوعد والوعيد.

وباعتبار أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحظور الذي يزيد عذابه على نعمها كانت وبالاً عليه، وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيراً له من أن يكون، فليست نعمة في حقه في باب القضاء والقدر، والخلق والمشيئة العامة، وإن كان ذلك يكون نعمة في حق عموم الخلق والمؤمنين، وعلى هذا يظهر ما تقدم من خيرات الله، فإن ذلك استدراج، ومكر، وإملاء.

وهذا الذي ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه، وسلبه من وجه آخر، مثل ما ذكر الله في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، فإنه قد أخبر أنه أكرمه، وأنكر قول المبتلي: ربي أكرمن، واللفظ الذي

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٤٨٨) وابن ماجه في سننه برقم (٣٧٤٥) والبغوي في شرح السنة برقم (٣٦١٢) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (١٩٣١).

أخبر الله به مثل اللفظ الذي أنكره الله من كلام المبتلي، لكن المعنى مختلف. فإن المبتلي اعتقد أن هذه كرامة مطلقة، وهي النعمة: التي يقصد بها [أن] النِّعم إكرامٌ له، والإنعام بنعمة لا يكون سبباً لعذاب أعظم منها، وليس الأمر كذلك، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه، مع علمه بما سيكون من الأمرين، لكن العلم بما سيكون شيء، وكون الشيء والعلم به شيء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات، ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾، ولهذا كانت خوارق العادات التي تسميها العامة «كرامة» ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقاً، بل في الحقيقة الكرامة هي: لزوم الاستقامة، وهي طاعة الله، وإنما هي مما يبتلي الله به عباده، فإن أطاعه بها رفعه، وإن عصاه بها خفضه، وإن كانت من آثار طاعة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧].

وإذا كان في النعمة والكرامة هذان الوجهان، فهي من باب الأمر والشرع نعمة [يجب] الشكر عليها، وفي باب الحقيقة القدرية لم تكن لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب، وهي في ظاهر الأمر قبل أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان، يمكن أن تكون من أسباب سعادته، ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته، وظهر بها جانب الابتلاء بالمرّ، فإن الله يبتلي بالحلو والمر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فمن ابتلاه الله بالمرّ: بالبأساء والضراء والبأس، وقدّر عليه رزقه، فليس ذلك إهانة له، بل هو ابتلاء، فإن أطاع الله في ذلك كان سعيداً، وإن عصاه في ذلك كان شقيًّا، كما كان مثل ذلك سبباً للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين، وكان شقاءً وسبباً للشقاء في حق الكفار والفجار.

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ

مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وكما أن الحسنات، وهي المسارّ الظاهرة التي يبتلى بها العبد، تكون عن طاعات فعلها العبد، فكذلك السيئات، وهي المكاره التي يبتلى بها العبد، تكون عن معاصي فعلها العبد، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨].

ثم تلك المسار، التي هي من ثواب طاعته، إذا عصى الله فيها كانت سبباً لعذابه، والمكاره التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سبباً لسعادته، فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها، وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سبباً للعذاب، وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سبباً للنعيم، وما هو طاعة ـ فيما يرى الناس ـ قد يكون سبباً لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة، إذا ابْتُلي في هذه الطاعة، وما هو معصية ـ فيما يرى الناس ـ قد يكون سبباً لسعادة العبد بتوبته منه، وتصبره على المصيبة، التي [هي] عقوبة ذلك الذنب.

فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل، فيؤمر العبد بالطاعة مطلقاً، وينهى عن المعصية مطلقاً، ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به.

وأما القضاء والقدر، وهو علم الله وكتابه، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه، فهو باعتبار الحقيقة الآجلة، فالأعمال بخواتيمها، والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان.

وقد يذكر تنازع الناس في هذا الباب:

فالمثبتة للقضاء والقدر من متكلمة أهل الإثبات وغيرهم يلاحظون القدر من علم الله وكتابه ومشيئته وخلقه، وقد يعرضون عمَّا جاء به الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعن الحكمة العامة، وما في تفصيل ذلك من الحكم الخاصة.

وأما من لم يلاحظ إلا الأمر والنهي والوعد والوعيد فقط من القدرية ومن ضاهاهم في حاله، فقد كفر بما وجب عليه الإيمان به من خلق الله وكتابه ومشيئته، وتدبيره لعباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحجة بتدبير خاص، ومن قضائه على الكفار بما هو فيه عدل سبحانه، كما في الحديث المرفوع: «**ماضٍ فينا أمرك، عدلٌ فينا قضاؤك**»[1]، ولا يظلم ربك أحداً.

وإذا عرف أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون في باطن الأمر مصلحة للعبد أو مفسدة له، وأنه إن أطاع الله بذلك كان مصلحة له، وإن عصاه كان مفسدة له ـ تبين أن الناس أربعة أقسام:

منهم من يكون صلاحه على السراء، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء، ومنهم من يصلح على هذا وهذا، ومنهم من لا يصلح على واحد منهما.

والإنسان الواحد قد تجتمع له هذه الأحوال الأربعة في أوقات متعددة، أو في وقت واحد باعتبارها أنواع يبتلى بها.

وقد جاء في الحديث المرفوع: «**إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغني، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، وذلك أني أدبر عبادي، إني بهم خبير بصير**»[2].

فكما أن التنعم العاجل ليس بنعمة في الحقيقة، قد يكون في الحقيقة بلاء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٣٤٠) وابن حبان في صحيحه برقم (٩٧٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٠) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٩).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة برقم (١٢٤٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩) وإسناده ضعيف.

وشرًّا باعتبار المعصية فيه، والطاعة المتقدمة قد تكون حابطة وسبباً للشر باعتبار ما يعقبها من ردة وفتنة، فكذلك التألم العاجل قد يكون في الحقيقة خيراً أو نعمة، والمعصية المتقدمة قد تكون سبباً للخير باعتبار التوبة والصبر على ما تعقبه من مصيبة، لكن تتبدل الطاعة والمعصية.

وهذا يقتضي أن العبد محتاج في كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته، وتثبيت قلبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وذلك أن الإنسان هو كما وصفه الله بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ٩ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ١١].

فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء، ييأس من زوالها في المستقبل، ويكفر بما أنعم الله به عليه قبلها، وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود [الضراء] في المستقبل، وينسى ما كان فيه بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]: على غيره، يفخر عليهم بنعمة الله عليه.

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١] فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه، منوع عند الخير يبخل به.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقال: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأساء والضراء وحين البأس، والصابرون في النعماء أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١١] والصبر في السراء قد يكون أشد، ولهذا قال من قال من الصحابة: «ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر».

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى[1]. وقال لأصحابه: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[2].

فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز، فإن كان قادراً أظهر ما في نفسه بحسب قدرته من: الفواحش، والإثم، والبغي، والإشراك بالله، والقول عليه بغير علم، ومن ترك القسط، وترك إقامة الوجه عند كل مسجد، ودعاء الله مخلصاً له الدين، ثم يكون شرهم بحسب كل منهم، من حيث نفوسهم وقدرتهم، فإن العبد لا يفعل إلا بقدرة وإرادة، فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد، كفرعون وأمثاله من الجبَّارين المتكبرين، لا يصبرون عن أهوائهم، ولا يتقون الله.

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر الله به من البر والتقوى، دون ما نهى عنه من الإثم والعدوان.

ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان ـ بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم ـ إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم، لا يقدرون على أهوائهم بنوع من أنواع القدرة، تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن يستعملهم في أغراضهم، وأجزع الناس لما أصابهم، ذلك أنه ليس في قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به، وتستغني به نفوسهم، ويصبرون به عما لا يصلح لهم.

وهذه حال الأمم البعيدين عن العلم والإيمان، كالترك التتار [والعرب] في جاهليتهم، فإنهم أعز الناس إذا قدروا، وأذل الناس إذا قهروا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٣٦٦) ومسلم في صحيحه برقم (٥٨٩) وأبو داود في سننه برقم (١٥٤٣) والترمذي في سننه برقم (٣٤٩٥) والنسائي في سننه (٨/ ٢٦٢، ٢٦٦) وابن ماجه في سننه برقم (٣٨٣٨) وأحمد في المسند (٦/ ٥٧، ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٦١) والترمذي في سننه برقم (٢٤٦٢) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٩٧) وأحمد في المسند (٤/ ١٣٧).

وأما المؤمنون، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا.

وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة:

ليسوا مفاريحَ إن نالَتْ رماحُهُمُ يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُو

ولهذا كان المشروع في حق كل ذي إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم ـ أحد أمرين: إما إصلاح إرادته، وإما منع قدرته، فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر.

وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات، وذو القدرة الذي لا يمكن سلب قدرته يسعى في إصلاح إرادته بحسب الإمكان.

فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان، وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجحه في النعيم واللذة على الكافر في الدنيا قبل الآخرة، وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

فأما ما وُعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله [فإنه] تكون الدنيا بالنسبة إليه سجناً، وما للكافر بعد الموت من عذاب الله [فإنه] تكون الدنيا جنة بالنسبة إلى ذلك.

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر، فإن كان عاجزاً تعارضت إرادته [وقدرته] حتى لا يمكنه الجمع بينهما، [وإن كان قادراً أقبل على الشهوات وأسرف في] التذاذه بها ولا يمكنه تركها.

ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجوراً وفساداً وطلباً لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب، ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك، هذا فيما ينالونه من اللذة، وأما ما يخافونه من الأعداء، فهم أعظم الناس خوفاً، ولا عيشة لخائف، وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم، لا يزال في أسف على ما فاته وعلى ما أصابه.

وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه، وهو مع عجزه أيضاً [له] من أنواع الإرادات الصالحة والعلوم النافعة التي يتنعم بها ما لا يمكن وصفه.

وكلّ هذا محسوس مجرب، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهرٍ من لذات أهل الفجور وذاقها، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها، ولكن أكثر الناس جهال، كما لا يسمعون ولا يعقلون، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه، انضم إليه أيضاً جهل كثير من المتكلمين في العلم بحقيقة ما في أمر [الله] من المصلحة والمنفعة، وما في خلقه أيضاً لعبده المؤمن من المنفعة والمصلحة، فاجتمع الجهل بما أخبر الله به من خلقه وأمره، وما أشهده عباده من [حقيقة الإيمان] ووجود [حلاوته] مع ما في النفوس من الظلم، مانعاً للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه، موقعاً لها في بأسه وعذابه وسخطه.

وذلك أن الناس لما خاضوا في مسائل القدر، ولم يخلق الله ويأمر، ونحو ذلك، بغير هدى من الله، فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً.

فزعم فريق أنه لا يخلق أحداً من الأشخاص إلا لأجل مصلحة المخلوق ولا يأمره إلا لأن أمره مصلحة له أيضاً، وإنما العبد هو الذي صرف عن نفسه المصلحة وفعل المفسدة بغير قدرة الرب وبغير مشيئته، وهم إنما قصدوا بها تنزيه الرب عن الظلم والعيب، ووصفه بالحكمة والعدل والإحسان، لكن سلبوه علمه وقدرته وكتابته وخلقه، ونفوا مشيئته وعمومها.

فقال قوم منهم: إنه لا يعلم ولا يكتب ما يكون من العباد حتى يفعلوه.

وقال آخرون: بل علم ذلك وعلم أنهم لا يطيعونه، ولا يفعلون إلا ما يضرهم، ومع هذا فقصد تعريفهم بالخلق والأمر للمنفعة الخالصة الدائمة.

فقال لهم الناس: من علم أن مقصوده من الخير لا يكون، وقد سعى في حصوله بمنتهى قدرته، كان من أجهل الفاعلين وأسفههم، فنزهوه عن قليل من السفه بالتزام ما هو أكثر منه، وزعموا أنه لا يقدر إلا على ما فعل بهم، فسلبوه قدرته.

فرد على هؤلاء طائفة من أهل الإثبات، فأثبتوا عموم قدرته وعموم مشيئته وخلقه وعلمه القديم، وكل هذا حسن موافق للكتاب والسنة، وهو مع تمام الإيمان القدر: بعلم الله القديم، ومشيئته، وخلقه، وقدرته على كل شيء، لكن ضموا إلى ذلك أشياء ليست من السنة، فإنه من السنة أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وألا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون، وأنه يأمر العباد بطاعته، ومع هذا يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

فزعموا مع ذلك أنه يخلق الخلق لا لحكمة في خلقهم، ولا لرحمته لهم، بل قد يكون خلقهم ليضرهم كلهم، وهذا عندهم حكمة، فلم ينزهوه عما نزه [عنه] نفسه من الظلم، حيث أخبر أنه إنما يجزي الناس بأعمالهم، وأنه لا يزر وازرة وزر أخرى، وأنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً.

بل زعموا أن كل مقدور عليه فليس بظلم، مثل تعذيب الأنبياء والمرسلين، وتكريم الكفار والمنافقين، وغير ذلك مما نزَّه الله نفسه عنه، فلم يكن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه حقيقة عند هؤلاء، إذ كلّ ما يمكن ويقدر عليه فليس بظلم. فقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] عندهم: لا يريد ما لا يكون ممكناً مقدوراً عليه، وهو عندهم لا يقدر على الظلم حتى يكون تاركاً له، وزعموا أنه قد يأمر العباد بما لا يكون مصلحة لهم ولا لواحد منهم، لا يكون الأمر مصلحة، ولا يكون فعل المأمور به مصلحة، بل قد يأمرهم بما إن فعلوه كان مضرة لهم، وإن لم يفعلوه عاقبهم [به]، فيكون العبد فيما يأمره به بين ضررين: ضرر إن أطاع، وضرر إن عصى، ومن كان كذلك كان أمره للعباد مضرة لهم، لا مصلحة لهم، وقالوا: يأمر بما يشاء، وأنكروا أن يكون في الأحكام الشرعية من العلل المناسبة للأحكام من جلب المنافع ودفع المضار ما تبقى [الأحكام] الشرعية ممكنة به، حتى كان منهم من دفع علل الأحكام بالكلية.

ومنهم من قال: العلل مجرد علامات ودلالات على الحكم، لأنها أمور تناسب الحكم وتلائمه، وهم يجوِّزون مع هذا ألا يكون للعبد ثواب ومنفعة في فعل المأمور به، لكن لما جاءت الشريعة بالوعد قالوا هو موعود بالثواب الذي وعد به، وربما قالوا: إنه في الآخرة فقط، فإن الفعل المأمور به قد لا يكون

[فيه] مصلحة للعباد ولا منفعة لهم بحال، ولا يكون فيه تنعم لهم ولا لذة بحال، بل قد يكون مضرة لهم ومفسدة في حظهم، ليس فيه ما ينفعهم، ومعلوم أنه إذا اعتقد المرء [أن] طاعة الله ورسله فيما أمره [به] قد لا يكون [فيها] مصلحة له ولا منفعة، ولا فيها تنعم ولا لذة ولا راحة، بل يكون [فيها] مفسدة له ومضرة عليه، وليس فيها إلا ألمه وعذابه ـ كان هذا من أعظم الصوارف له عن فعل ما أمر الله به ورسوله، ثم إن كان ضعيف الإيمان بالوعيد والوعد ترك الدين بالكلية، وإن كان مؤمناً بالوعيد صارت دواعيه مترددة بين هذا العذاب وذلك العذاب، وإن كان مؤمناً بوعد الآخرة فقد اعتقد أنه لا تكون له في الدنيا مصلحة ولا منفعة، بل [لا] تكون المصلحة والمنفعة في الدنيا إلا لمن كفر أو فسق وعصى.

وهذا أيضاً ـ وإن كان هو غاية حال هؤلاء ـ فهو مما يصرف النفوس عن طاعة الله ورسوله، ويبقى العبد المؤمن متردد الدواعي بين هذا وهذا، وهو لا يخلو من أمرين:

إما أن يرجح جانب الطاعة التي يستشعر أنه ليس فيها طول عمره له مصلحة ولا منفعة ولا لذة، بل عذاب وألم، بل مفسدة ومضرة، وهذا لا يكاد يصبر عليه أحد، وإما أن يرجح جانب المعصية تارة أو تارات أو غالباً، ثم إنّ أحسن أحواله مع ذلك أن ينوي التوبة قبيل موته.

ولا ريب إن كان ما قاله هؤلاء حقًّا فصاحب هذه الحال أكيس وأعقل ممن محَّض طاعة الله طول عمره، إذ أن هذا سلم من عذاب ذلك المطيع في الدنيا، ثم إنه بالتوبة أحبط عنه العقاب، وأبدل الله سيئاته بالحسنات، فصارت جميع سيئاته حسنات، فصار ثوابه في الآخرة قد يكون أعظم وأعظم من ثواب ذلك المطيع الذي محض الطاعة، ولو كان ثوابه دون ثواب ذلك لم يكن التفاضل بينهم إلا كتفاضل أهل الدرجات في الجنة، وهذا مما يختاره أكثر الناس على مكابدة العذاب والشقاء والبلاء بطول العمر، إذ هو أمر لا يصبر عليه أحد، فإن مصابرة العذاب ستين أو سبعين سنة بلا مصلحة ولا منفعة ولا لذة أمر ليس هو من جبلة الأحياء، إذا جوّزوا أن لا يكون في شيء من طاعة الله مصلحة ولا منفعة طول عمره.

وهؤلاء يجعلون العباد مع الله بمنزلة الأجراء مع المستأجرين، كأن الله

استأجرهم طول مقامهم في الدنيا ليعملوا ما لا ينتفعون به، ولا فيه لربهم منفعة، ليعوضهم مع ذلك بعد الموت بأجرتهم، وفي هذا من تشبيه الله بالعاجز الجاهل السفيه ما يجب تنزيه الله عنه، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

والحق الذي يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر، وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس.

ثم إنه سبحانه ـ كما قال قتادة وغيره من السلف: لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه، ولا نهاهم عمّا نهاهم عنه بخلاً منه، بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عمّا فيه فسادهم.

وفي الحديث الصحيح، حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة، يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**(1).

وقال تعالى في وصف النبي الأمي: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٤٩٠) والترمذي في سننه برقم (٢٤٩٥) وابن ماجه في سننه برقم (٤٢٥٧) وأحمد في المسند (٥/ ١٦٠) وابن حبان في صحيحه برقم (٦١٩).

وقال تعالى لما ذكر الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به، وهذه نكرة مؤكدة بحرف «من»، فهي تنفي كل حرج، وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فقد أخبر أنه ما جعل علينا في الدين من حرج نفياً عامّاً مؤكداً، فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذَّب الله ورسوله، فكيف بمن اعتقد [أن] المأمور به قد يكون فساداً وضرراً لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا، ولهذا [لمَّا] لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا، لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الله تعالى فيما أمر به من الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا، فكيف يريد ما يكون ضرراً وفساداً لنا بما أمرنا به إذا أطعناه فيه؟

ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد في الدنيا والآخرة، وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له في الدنيا، كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق، الذين قد يقولون: إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره، بل يكون ذلك في المنهي عنه، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى عن الذين اتبعوا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع بعد الموت، بل لا يكون لصاحبها نصيب في الآخرة، وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا، وقد يسمون ذلك العقل المعيشي، أي العقل الذي يعيش به الإنسان في الدنيا عيشة طيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:

١٠٣]، فأخبر أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون، ينبههم على [أن في] ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه في الدنيا لو كانوا يعلمون، فيحصل لهم في الآخرة من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلوه بذلك من خير الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦]، ثم قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧ ـ ١٤٨]، وقال عن إبراهيم: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢].

وقد قال تعالى ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه في الدنيا أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

وهذا في سياق حال: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب.

والمشركون حالهم أيضاً شبيه بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريًّا كأنهم لا يعلمون: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فإن أولئك عدلوا عمّا في كتاب الله إلى اتباع الجبت والطاغوت، والسحر، والشيطان. وهذه حال الذين أوتوا نصيباً من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، وحال الذين يتحاكمون إلى الطاغوت من المظهرين [للإيمان] بالله ورسله فيها من حال هؤلاء.

والطاغوت كل معظّم ومتعظّم بغير طاعة الله ورسوله، من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان.

وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهة والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة، الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أنواع الجبت والطاغوت، والذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦١ - ٦٢] أي هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلى اتباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنّوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم، مثل طلب علم وتحقيق، كما يوجد في صنف المتكلمة، ومثل طلب أذواق ومواجيد، كما يوجد في صنف المتعبدة، ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة، كما يوجد في صنف الذين يريدون العلو، والذين يتبعون شهوات الغي.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] أي ضلوا عن مطلوبهم الذي هو جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن ذلك إنما هو في طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت، فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم في الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، قالوا: ما أردنا بما فعلناه إلا إحساناً: أي أردنا الإحسان إلى نفوسنا لا ظلمها، وتوفيقاً: أو جمعاً بين هذا وهذا، لتجتمع الحقائق والمصالح.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣] من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة: الظن وما تهوى الأنفس ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤] فدعاهم سبحانه بعدما فعلوه من النفاق إلى التوبة، وهذا من كمال رحمته بعباده، يأمرهم قبل المعصية بالطاعة، وبعد المعصية بالاستغفار، وهو رحيم بهم في كلا الأمرين: بأمره لهم بالطاعة أولاً برحمته، وأمرهم بالاستغفار من رحمته، فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولاً، والذين استغفروه ثانياً.

فإذا كان رحيماً بمن يطيعه، والرحمة توجب إيصال ما ينفعهم إليهم، ودفع ما يضرهم عنهم، فكيف يكون المأمور به مشتملاً على ضررهم دون منفعتهم؟

وقوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ المجيء إليه في حضوره معلوم كالدعاء إليه، وأما في مغيبه ومماته فالمجيء إليه كالدعاء إليه، والرد إليه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٦١] وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وهو الرد والمجيء إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وكذلك المجيء إليه لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به، فإذا رجع إلى ما أمره به فإن الجائي إلى الشيء في حياته ممن ظلم نفسه يجيء إليه داخلاً في طاعته، راجعاً عن معصيته، كذلك في مغيبه ومماته.

واستغفار الله موجود في كل مكان وزمان، وأما استغفار الرسول فإنه أيضاً يتناول الناس في مغيبه وبعد مماته، فإنه أمر بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وهو مطيع لله فيما أمره به؛ والتائب داخل في الإيمان، إذ المعصية تنقص الإيمان، والتوبة من المعصية تزيد في الإيمان بقدرها، فيكون له من استغفار النبي ﷺ بقدر ذلك.

فأما مجيء الإنسان إلى [الرسول ﷺ] عند قبره، وقوله: استغفر لي، أو سل لي ربك، أو ادعو لي، أو قوله في مغيبه: يا رسول الله ادع لي، أو استغفر لي، أو سل لي ربك كذا و كذا، فهذا لا أصل له، ولم يأمر الله بذلك، ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين في القرون الثلاثة، ولا كان ذلك معروفاً بينهم، ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك، ولكان ذلك معروفاً فيهم، بل مشهوراً بينهم، ومنقولاً عنهم، فإن مثل هذا إذا كان طريقاً إلى غفران السيئات وقضاء الحاجات، [لكان] مما تتوفر الهمم والدواعي على فعله وعلى نقله، لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس على الخير، فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك، ولا نقله أحد عنهم، [علم] أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به.

بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبي ﷺ من نهيه عن اتخاذ قبره عيداً ووثناً، وعن اتخاذ القبور مساجد[1].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه بالأرقام (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤،=

وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبي عن الأعرابي الذي أتى قبر النبي ﷺ وقال: «يا خير البرية: إن الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٤]، وإني قد جئت؛ وأنه رأى النبي ﷺ في المنام وأمره أن يبشر الأعرابي - فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر في قبر النبي ﷺ وقبر غيره من الصالحين، فيقع مثلهما لمن في إيمانه ضعف، وهو جاهل بقدر الرسول وبما أمر به، فإن لم يعف [عن] مثل هذا لحاجته، وإلا اضطرب إيمانه، وعظم نفاقه، فيكون في ذلك بمنزلة المؤلفة بالعطاء في حياة النبي ﷺ، كما قال: «**إني لأتألف رجالاً بما في قلوبهم من الهلع والجزع، وأكل رجالاً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**»(١)، مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم، فهذه أيضاً مثل هذه الحاجات.

وأما المشروع الذي وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه، متوسلاً به، لا دعاؤه في مماته ومغيبه، وهو أن يفعل كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه أن النبي ﷺ علّم رجلاً أن يقول: «**اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد، نبي الرحمة، يا محمد يا نبي الله: إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهم شفعه فيّ**»(٢). وذلك أن الله يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

= ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦) ومسلم في صحيحه برقم (٥٢٩) والنسائي في سننه (٢/ ٤٠، ٤١) وأحمد في المسند (٦/ ٣٤، ٨٠، ١٢٠، ١٤٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٧٤، ٢٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وأخرج أبو داود في سننه برقم (٢٠٤٢) وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً وصلّوا عليّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٩٢٣، ٣١٤٥، ٧٥٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٥٧٨) وابن ماجه في سننه برقم (١٣٨٥) والحاكم في المستدرك (١/ ٣١٣) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٨٣٢).

﴿لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم بنفسه على أنه نفى إيمان من لم يجمع أمرين: تحكيمه فيما شجر بينهم، ثم أن لا يجد في نفسه حرجاً، وهذا يوجب أنه ليس في أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك، فإنّ حكمه لا بد فيه من أمر ونهي، وإن كان فيه إباحة أيضاً، فلو كان المأمور به والمنهي عنه مضرة للعبد ومفسدة، وألماً بلا لذة راجحة، لم يكن العبد ملوماً على وجود الحرج فيما هو مضرة له ومفسدة.

ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه، وأن محبة ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويسخط ما أسخطه الله من المحظور، ويحب ما أحبه، ويرضى ما رضيه الله من المأمور.

وإنما تنازعوا في الرضا بما يقدِّره الحق من الألم بالمرض والفقر. فقيل: هو واجب، وقيل هو مستحب وهو أرجح. والقولان في أصحاب الإمام أحمد وغيرهم. وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب.

وقد قال تعالى في الأول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٨ ـ ٥٩]، فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله، وحضهم بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله، والذي آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره، ويدخل [في] المباح العام ما أوجبه وما أحبه.

وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله وأحبه، كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه، كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله. فيكون ما قُدِّرَ للمؤمن من سراء معها شكر وضراء معها صبر خيراً له، كما قال النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، أن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له**»(١). وإذا كان خيراً فالخير هو المنفعة والمصلحة الذي فيه النعيم واللذة كما تقدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

فيكون كل مقدور قدر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيراً له، وإنما يكون شرًّا لمن عمل بمعصية الله ورسوله، ومثل ذلك فهو ـ بحسبه ونيته ـ بلاء قد يعمل فيه بطاعة الله، وقد يعمل فيه بمعصية الله، فلا يوصف بواحد من الأمرين.

فصل

وإذا كان كل حركة في الوجود فلا تخلو من أن تكون إرادية أو طبعية أو قسرية، وتبين أن الطبيعة والقسرية فرع وتبع للإرادية ـ فثبت أن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار، وذلك يبطل أن يضاف خلق شيء من المخلوقات إلى الطبع الذي في الأجسام، مثل أن يكون الخالق للأجنة في الأرحام هو طبع، أو الخالق للنبات هو طبع، لأن الطبع لا يكون مبدءاً لحركة [الجسم] وانتقال أصله، إلا إذا أخرج عن طبعه بغير طبعه، كما يجمع بين الأجسام بالمزج والخلط، فتنتقل عن مراكزها ومحالها المخالف لمقتضى طبعها، وعند التحقيق يعود الطبع إلى أنه ليس فيها سبب للحركة عن حالها وسكونها، فيكون الطبع بمنزلة السكون وعدم الحركة، أو أمراً وجوديًّا منافياً للحركة، فالحركة الواردة عليها مخالفة له، والطبع جمود، وهي [تنتقل] عن إرادة وحركة، فعلم بطلان إصابة شيء من الحوادث العرضية عن مجرد الطبع الذي في الموات، فكيف بالحوادث الجوهرية؟!

والإرادة والاختيار مستلزمة للحياة والعلم، كما أن الحياة أيضاً مستلزمة للعلم وللإرادة، بل وللإرادة والحركة، كما قرر ذلك عثمان بن سعيد وغيره من أئمة السنة.

وكما أن الحركة مستلزمة للإرادة والحياة، فالحياة أيضاً مستلزمة للحركة والإرادة، ولهذا كان أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالاسم الحي مستلزم لصفاته وأفعاله، وهو من أعظم البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال، والمصحح لها، والمستلزم ثبوتها ونفي نقيضها، كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك، كما هو مبين في موضعه.

فصل

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

وأصل الموالاة هي المحبة، كما أن أصل المعاداة البغض، فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يوجب التباعد والاختلاف، وقد قيل: المولى من الوَلْي: وهو القرب، وهذا يلي هذا، أي هو يقرب منه.

والعدو من العُدَواء وهو البعد، ومنه العُدْوَة. والشيء إذا ولي الشيء ودنا منه وقرب إليه اتصل به، كما أنه إذا عُدِّي عنه، ونأى عنه، وبعد منه، كان ماضياً عنه.

فأولياء الله ضد أعدائه، يقرِّبهم منه ويدنيهم إليه، ويتولاهم ويتولونه، ويحبهم ويرحمهم، ويكون عليهم منه صلاة، وأعداؤه يبعدهم ويلعنهم، وهو إبعاد منه ومن رحمته، ويبغضهم ويغضب عليهم، وهذا شأن المتوالين والمتعادين. فالصلاة ضد اللعنة، والرحمة والرضوان ضد الغضب، والسخط والعذاب ضد النعيم.

قال تعالى في حق الصابرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى في حق المجاهدين: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

وقال تعالى في قاتل المؤمن متعمداً: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والمتلاعنان يقول الرجل في الخامسة: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧] وذلك يكون قاذفاً. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]، وتقول المرأة في الخامسة: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩]، لأنه إذا كان صادقاً كانت زانية فاستحقت الغضب الذي هو ضد الرحمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور: ٢]، فنهى عن الرأفة بهما في دين الله.

والمؤمن يغار، والله يغار، وغيرة الله أعظم، كما قد استفاض عن النبي ﷺ في الصحيح من غير وجه أنه قال: **«لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**(١).

وفي بعض الأحاديث الصحاح: **«لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته»**(٢) وفي بعضها: **«إن الله يغار، وغيرته أن يأتي العبد ما حرَّم عليه»**(٣).

والغيرة فيها من البغض والغضب ما يدفع به [الإنسان] ما غار منه، فالزنا وإن كان صادراً عن الشهوة والمحبة منهما، أو من أحدهما، فإن ذلك مقابل [بضرورة التنزه عن الفواحش، والتورع عن المحرمات]. فأمر الله أن لا تأخذنا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (٤٦٣٤، ٤٦٣٧، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣) ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٦٠) والترمذي في سننه برقم (٣٥٣٠) وأحمد في المسند (١/ ٣٨١، ٤٢٥، ٤٣٦) والبغوي في شرح السنة برقم (٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (١٠٤٤، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٥٠، ١٠٥٦، ١٠٥٨، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٢١٢، ٣٢٠٢، ٤٦٢٤، ٥٢٢١، ٦٦٣١) ومسلم في صحيحه برقم (٩٠١) وأبو داود في سننه برقم (١١٨٧) والنسائي في سننه (٣/ ١٠٨) وأحمد في المسند (٦/ ١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٢٣) ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٦١) والترمذي في سننه برقم (١١٦٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٤٣، ٣٨٧، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٣٦، ٥٣٩).

بهما رأفة في دين الله، فنهانا عن أن تكون منّا رأفة تدفع العذاب عنهما، فضلاً عن أن يكون محبة لذلك الفعل، ولهذا أخبرنا به بأنه لا يحب ذلك أصلاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وما لا يأمر به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب لا يحبه، قال لوط عليه السلام: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨] والقلى: بغضه وهجره، والأنبياء أولياء الله، يحبون ما يحب الله ويبغضون ما يبغض.

وربما قيل: القلى أشد البغض، فالله سبحانه يبغض ذلك، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه، كما أنه يحب كل ما أمر به، بل الغيرة مستلزمة لقوة البغض، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه، وليس كل من يبغض شيئاً يغار منه، فالغيرة أحض وأقوى.

ولا ريب أن المرأة المزوَّجة الزانية استحقت الغضب لشيئين:

لأجل ما في الزنا من التحريم، ولأنها اعتدت فيه على الزوج فأفسدت فراشه، ولهذا كان للزوج إذا قذف امرأته ولم يأت بأربعة شهداء: أن يلاعنها، لما له في ذلك من الحق، ولأنه مظلوم إذا كان صادقاً، وعليه في زناها من الضرر ما يحتاج إلى دفعه بما شرعه الله، كالمقذوف الذي له أن يستوفي حدّ القذف من القاذف الذي ظلمه في عرضه، فكذلك الزوج له أن يستوفي حدّ الفاحشة من البغي الظالمة له، المعتدية عليه. كما قال النبي ﷺ في حق الرجل على امرأته: «**وأن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه**»[1]، فلهذا كان له أن يقذفها ابتداءً، [وقذفها] إما مباح له وإما واجب عليه إذا احتاج إليه لنفي النسب، ويضطرها بذلك إلى أحد أمرين:

إما أن تعترف فيقام عليها الحد، فيكون قد استوفى حقه، وتطهرت هي أيضاً من الجزاء لها والنكال [في الآخرة] بما حصل.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه برقم (١١٦٣) وابن ماجه في سننه برقم (١٨٥١) من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه، وأوله: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم...» وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (٩٢٩).

وإما أن تبوء بغضب الله عليها وعقابه في الآخرة الذي هو أعظم من عقاب الدنيا، فإن الزوج مظلوم معها، والمظلوم له استيفاء حقه إما في الدنيا وإما في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨] [بخلاف غير الزوج] فإنه ليس له حق الافتراش، فليس له قذفها، ولا أن يلاعن إذا قذفها، لأنه غير محتاج إلى ذلك [مثل] الزوج، ولا هو مظلوم في فراشها، لكن يحصل بالفاحشة من ظلم غير الزوج ما لا يحتاج إلى اللعان، فإن في الفاحشة إلحاق عار بالأهل، والعار يحصل بمقدمات الفاحشة.

فإذا لم تكن الفاحشة معلومة بإقرار ولا بيِّنة كان عقوبة ما ظهر منها كافياً في استيفاء الحق، مثل الخلوة والنظر ونحو ذلك من الأسباب التي نهى الله عنها، وهذا من محاسن الشريعة.

وكذلك كثيراً ما يقترن بالفواحش من ظلم غير الزانيين، فإنه إذا حصل بينهما محبة ومودة فاحشة كان ذلك موجباً لتعاونهما على أغراضهما، فيبقى كل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبيح، وتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت العادة في البَغِيِّ من النساء والصبيان أن خدنه أو المسافح به يحصل له منه من الإكرام والعطاء والنصر والمعاونة ما يوجب استطالة ذلك الفاجر بترك حقوق الخلق والعدوان عليهم.

وأيضاً [فإن] محبته له قد تحمل الطالب الراغب على أخذ أموال الناس بغير حق ليعطيه ذلك، وتحمله أيضاً على ترك حقوق الناس وقطيعة رحمه لأجل ذلك الشخص، فإنه لا يمكن الجمع بين الأمرين، ويحمله أيضاً على الانتصار له بالعدوان.

ففي الجملة المحبة توجب موافقة المحب للمحبوب، فإذا كانت المحبة فاسدة لا يحبها الله ولا يرضاها إذا لم يتعد ضررها للاثنين، تكون العقوبة لهما حقًّا لله، لكن هي في الغالب، بل في اللازم، يتعدى ضررها إلى الناس؛ فإن كل واحد من الشخصين عليه حقوق للناس، وهو ينهى عن العدوان عليهم، فإذا تحابا وتعاونا لم يتمكن كل منهما من القيام بحقوق الناس، واحتاج إلى أن يتعدى عليهم.

ولا ينبغي للإنسان أن يعتبر بظاهر ما يقال: إن الإنسان إذا فعل فاحشة فإن الإثم عليه خاصة، وليس ذلك بظلم للغير، فإن ذلك إنما هو في الفاحشة المحضة، مثل الزنا المحض، الذي لم يتعلق به حق الغير، فأما زنا الزوجة ففيه ظلم بالاتفاق كما بيّنّاه.

وكذلك المحبة والعشق الفاسد، فإن هذا أعظم ضرراً من الزنا مرة واحدة، فإن الرجل إذا زنا مرة أو مرتين حصل غرضه، وكذلك المرأة، ثم إنه قد يكون بعوض من أحدهما للآخر وقد لا يكون، فربما كان فيه ظلم للغير.

وأما المحبة والعشق، فإن ذلك مستلزم للعدوان على غيرهما في العادة، فإن المحبة توجب أن يعطى المحبوب من المنافع والأموال ما يوجب حرمان الغير والعدوان عليه، ويوجب من الانتصار للمحبوب والدفع عنه ما فيه أيضاً ترك حق الغير والعدوان عليه، ألا ترى أن الرجل إذا أحب غير امرأته، أو المرأة [إذا] أحبت غير زوجها، قصر كل منهما في حقوق الآخر واعتدى عليه، بل إذا أحب الرجل امرأةً أو صبيًّا قصَّر في حقوق أهله وأصدقائه ممن له عليه حق، بل وظلمهم أيضاً، كما يظلم غيرهم لأجله؟! وهذا سوى ما في ذلك من حق الله الذي يوجب غليظ عقابه، وإن كان الرجل العاقل قد يقوم من الحقوق بما يمكن، ويدع الظلم بحسب الإمكان، إلا أن هذا مظنة وسبب لذلك، وهذا مما يوجب تحيّر الرجل وتردده وتلومه إلى الحق تارة وإلى الباطل أخرى، وهذا مرض عظيم، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وأما ما في ذلك من ظلم كل منهما لنفسه ولخدنه فذاك ظاهر، لكنهما ظلما أنفسهما، فهما الظالمان المظلومان، وأما الغير فظلماه بغير رضاه ولا اختياره.

وكذلك ما تفضي إليه هذه المحبة الباطلة من ظلم كل منهما للآخر، إما بقتله، وإما بتعذيبه بغير الحق، وإما منعه من الاتصال بالناس، وفعل ما يختار من مصلحة وغيرها. ففيها هذه المفاسد كلها وأكبر منها، لكن ذلك ظلم منهما لأنفسهما مبدؤه المحبة الفاسدة.

ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا بهما رأفة في دين الله، فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصِّل للمرحوم ما ينفعه، وتدفع عنه ما يضره، وإذا رأف بهما أحد لأجل ما [في] قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك، وترك عذابهما، كان ذلك

جالباً لما يضرهما ودافعاً لما ينفعهما، فإن ذلك مرض في قلوبهما، والمريض الذي يشتهي ما يضره ليس دواؤه إعطاءه المشتهى الضار، بل دواؤه الحمية وإن آلمته، وإعطاؤه ما ينفعه، وتعويضه عن ذلك الضار بما أمر مما لا يضر.

فهكذا أهل الشهوات الفاسدة، وإن أضرمت قلوبهم نار الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم من ذلك، أو ترك عذابهم، فإن ذلك يزيد بلاءهم وعذابهم، والحرارة التي في قلوبهم مثل حرارة المحموم، متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه، أو انتقل إلى مرض شرّ منه.

فهذه حال أهل الشهوات، بل تدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها، والمنع من موجباتها، ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذي يخرج المحبة من القلب كما قيل:

فإني رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فإذا كان يحصل بالمحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه على لذتها انكفّت النفس، وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيذ أطيب منه اغتاظت النفس، فاللذيذ يترك لما يرجح عليه من لذيذ وأليم، كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيذ وأليم، وإذا تكافئا تقابلا، فلم يغلب أحدهما الآخر، بل تبقى الأمور على ما هو عليه إذا استوت الدواعي والصوارف، واحتمال الأليم وفوت اللذيذ وإن كان فيه مرارة، فذلك يدفع به ما هو أمر منه، ويجلب به ما هو أرجح منه من الحلو.

ولكن هذا من محبة بني آدم وفتنتهم التي لا بد منها، وهي مخالفة الأهواء، فلا تقوم مصلحة أحد من بني آدم بدون ذلك أبداً، لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه، كما قال إبراهيم الحربي: أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، ولا بد من الصبر في جميع الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، فلا بد من التواصي بالحق والصبر، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضاً، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر، وأولئك يتواصون بالصبر على باطلهم، كما قال قائلهم: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

فالتواصي بالحق بدون الصبر، كما يفعله الذين يقولون آمنّا بالله فإذا أوذي

أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، والذين يعبدون الله على حرف، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

والتواصي بالصبر بدون الحق، كقول الذين قالوا: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، [ص: ٦] كلاهما موجب للخسران، وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة، وأهل الشبهات الفاسدة، وأهل الفجور، وأهل البدع.

وما ذكرناه من أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحابين لأنفسهما ولغيرهما موجود في كل محبة يبغضها الله، كمحبة الأنداد والشركاء من دونه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس الفواحش، ومحبة أهل الظلم، والقائلين على الله ما لا يعلمون، فإن المحبة توجب تعاون المتحابين واتفاقهما، فلا بد أن يبغضا ويعاديا من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه.

ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله، ويحب ما يحبه الله؛ فلا بد أن يكون التحاب الذي يبغضه الله موجباً لنوع بُغض المؤمنين بحسبه.

فصل

قد كتبت في غير هذا الموضع أن الناس وإن تنازعوا في العلم: هل هو صفة انفعالية تابعة للمعلوم، كما قد يطلقه كثير من أهل الكلام؟ أو هو صفة فعلية مؤثرة في المعلوم، كما يقوله طوائف من المتفلسفة؟

فإن الصواب أنه ينقسم إلى النوعين جميعاً، فمنه ما هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بحال، وهو العلم النظري القولي الخبري المحض، كعلمنا بما لا تأثير لنا في وجوده، كالعلم بالخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه وأنبيائه وسائر مخلوقاته.

ومنه ما هو فعلي له تأثير في المعلوم، كعلمنا بأفعالنا الاختيارية وما يترتب عليها من حصول منفعة ودفع مضرة.

وهذا التقسيم ثابت في علم الله تعالى، فإنه يعلم نفسه ويعلم مخلوقاته أيضاً، والأول علم بموجود، والثاني علم بمقصود.

لكن العلم بالموجود المستغنى عن أفعالنا يتبع العلم به حبه تارة وبغضه أخرى، فيكون العلم به سبباً لأفعال لنا متعلقة به، فيكون هذا العلم الانفعالي فعليًّا مؤثراً من هذا الوجه، وعلمنا بالحسنات والسيئات التي في أفعال غيرنا من هذا الوجه.

وعلم الرب سبحانه بأفعال عباده الصالحة والسيئة مستلزم أيضاً حبه للحسنات وبغضه للسيئات، والعلم بالمقصود من أفعالنا، وإن كان مؤثراً في المعلوم، وهو سبب في حصوله، فلا يكون إلا بعد علم بأمور موجودة أوجب قصداً أو اختياراً لتلك الأفعال، فإن الفعل الاختياري يتبع الإرادة، والإرادة تتبع المراد، فلا بد أن يتصور الفاعل المراد قبل قصد الفعل الذي هو سبب إليه، كما يقال: آخر الفكرة أول العمل، وتسمى العلة الغائية. [فلا بد من تصور] ذلك المراد، وأن يكون ما يترتب على الفعل من لذة تجلب منفعة وتدفع مضرة، فاللذة مشروطة بالإحساس باللذيذ، والإنسان لا يفعل ابتداءً لطلب لذيذ إلا أن يكون قد أحسَّه قبل ذلك فأحبه واشتهاه واشتاق إليه، وذلك علم بأمر موجود تابع للمعلوم، تبعه علم بأمر مقصود تابع للعلم، وإن كانت اللذة قد تحصل ابتداءً لا عن شوق، كمن يذوق الشيء الطيب الذي لم يكن يعرفه فيحبه بعد ذلك، لكن هذا لم يتقدم منه طلب وفعل في حصول هذا المحبوب، بخلاف من ذاقه ابتداءً فأحبه، ثم سعى في تحصيل نظائر ما حصل له ابتداءً.

فقد تبين أن كلاً من العلمين: الفعلي والانفعالي مستلزم للآخر، وكذلك علم الرب سبحانه وتعالى بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته، وهو سبحانه يحمد نفسه ويثني عليها، فلا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وعلمه بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه، وعلمه بالمخلوقات وأفعالها يتبعه حبّه وبغضه، وأمره ونهيه، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هي عليه، وقد تكلمنا على نحو هذا في غير هذا الموضع.

وإنما المقصود في هذا المكان أن هذا التقسيم الوارد في العلم يرد نحوه في الإرادة والمحبة ونحو ذلك.

فإن الإرادة والمحبة تنقسم أيضاً إلى فعلية مؤثرة في المراد المحبوب، وهي إرادة الفعل وحبه [وإن كان المراد المحبوب تابعاً مفعولاً معدوماً].

وقد ظن بعض الناس أن الإرادة والمحبة ليست إلا هذا النوع، حتى قال: لا تتعلق الإرادة والمحبة إلا بالمعدوم دون الموجود، وبالمحدث دون القديم، وهذا قول طوائف من أهل الكلام، وأكثر هؤلاء هم أكثر القائلين بأن العلم لا يكون إلا انفعاليًّا، فيجعلون العلم لا يتعلق في الحقيقة إلا بمعلوم متبوع كالموجود، ويجعلون الإرادة لا تتعلق إلا بمراد تابع كالمفعول المعدوم.

وتنقسم إلى انفعالية تابعة للمراد المحبوب ليست مؤثرة في وجوده أصلاً، بل يكون المحبوب المراد موجوداً بدون الإرادة، وإنما يحب المحب ذلك الموجود ويريده، ويقال في كثير من أنواع ذلك: يهواه ويعشقه، ونحو ذلك من العبارات.

وهذا القسم في الحقيقة هو الأصل في القسم الأول، كما قد تكلمنا عليه في بعض القواعد المتقدمة من سنين، وذكرنا أن العلم ـ والإرادة ـ إنما يتعلق أولاً بالموجود، وأن تعلقه بالمعدوم تابع لتعلقه بالموجود، وذكرنا أن الإنسان لا يحب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس أو معرفة ونحو ذلك، ويكون مع ذلك بنفسه إليه ميل وفيها له حب، وكل واحد من هاتين الفرقتين في فطرته وجبلته المعرفة والمحبة، ولهذا كان كل مولود يولد على الفطرة: فطرة الإسلام، وهي عبادة الله وحده، وأصل ذلك معرفته ومحبته.

والنفس لا تحس العدم المحض، وإنما تعرف العدم بنوع من القياس المقدر على الوجود، كما يقدر في نفسه جبل ياقوت وبحر زئبق، فنزل ذلك مما علمه من الجبل ومن الياقوت، ثم ينفي ذلك المقدر في ذهنه أن يكون موجوداً في الخارج، وهو لم يحكم على نفيه حتى صار موجوداً في نفسه وجوداً تقديرياً.

فإذا كان الحب يتبع الإحساس، والإحساس لا يكون إلا بموجودٍ ما، [فإن ما] يُحبُّ لا يكون إلا بموجود، وأيضاً فإن الإحساس لا يكون أولاً إلا

لموجود، فكذلك الحب في نفسه لا يكون إلا لموجود أو محبوب، وإن كان يحب وجود المعدوم [فهو] لا شيء، وما ليس بشيء لا يكون محبوباً، وإن كان يحب وجود المعدوم ويريده، فلا بد أن يكون قبل ذلك قد ذاقه والتذَّ به موجوداً حتى أحبه بعد ذلك، أو ذاق والتذ بنظيره أو بما يشبهه كما ذلك في العلم، وهذا مذكور في غير هذا الموضع.

ولا يرد على هذا ما يوجد من بكاء الصبي حين يولد قبل أن يذوق طعم اللبن، فإذا ذاق اللبن التذ به وسكن، فإن الصبي قبل ذوقه اللبن لم يكن يحبه ويشتهيه، ولكن يجد ألم الجوع فيبكي من ذلك الألم، فلما ذاق اللبن ووجد لذته، وأنه أذهب ألم الجوع أحبه من حينئذ، ومن حينئذ صار يشتهيه ويحبه؛ وهكذا كل من جاع فإنه لا يشتهي شيئاً معيناً إلا أن يكون ذاقه قبل ذلك، ولكن يجد طلباً لما يزيل به ألم الجوع، ولهذا إذا حضر عنده ما قد ذاقه قبل ذلك، وما لم يذقه قبل ذلك، اشتاق إلى الأول وأحبه، وكان شوقه إلى الثاني ومحبته إياه مشروطاً بذوقه إياه وسماع وصفه ممن يخبره، [فإن سماع الوصف] يورث المحبة والشوق كما يورث العلم، كما قيل:

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

لكون النفس ذاقت طعم الحب لما هو من نظير لذلك أو شبيه به ولو من وجه بعيد، فكما أن الشيء لا يتصور إلا [بعد] الحس به، أو بما فيه شبه به من بعض الوجوه، فكذلك لا يحب كذلك.

ولهذا ضربت الأمثال للتعريف والترغيب والترهيب، فإن الأمور الغائبة عن المشاهدة والإحساس لا تعرف وتحب وتبغض إلا بنوع من التمثيل والقياس، سواء كان الغائب أكمل في الصفات المطلوبة المشتركة، كالموعود به من أمر الجنة والنار، وكما يصف به الرب نفسه سبحانه وتعالى، أو ما كان دون ذلك، كما مثّل من الأمور بما هو أكمل منه.

ومن هنا ضل من الصابئة المتفلسفة، ومن أضلوه من أهل الملل، حيث ظنوا أن ما وصف الله به الجنة والنار إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم المعاد الروحاني من غير أن تكون حقائق، وضل من رد عليهم من نفاة أهل الكلام، كما أصاب الفريقين مثل ذلك في أمر النفس الناطقة، حيث تقابلوا بالنفي

والإثبات، وحيث اتفق الفريقان على مثل هذا الضلال في صفات ذي الجلال، فخاضوا في باب الإيمان بالله واليوم الآخر خوضاً ليس هذا موضع بسط الكلام فيه، وإن كان كل ذي مقالة فلا بد أن تكون في مقالته شبهة من الحق، ولولا ذلك لما راجت واشتبهت.

وإن كانت الإرادة والمحبة تنقسم إلى متبوعة للمراد تكون له كالسبب الفاعل، وإلى تابعة للمراد يكون هو لها كالسبب الفاعل، وتكون عنه كالمسبب المفعول، وهذا هو الأصل.

وإذا علم أن جميع حركات العالم صادرة عن محبة وإرادة، ولا بد للمحبة والإرادة من سبب فاعل يكون هو المحبوب المراد ـ علم بذلك أنه لا بد لجميع الحركات من إله يكون المعبود المقصود المراد المحبوب لها، وأنها دالة على الإله الحق من هذا الوجه، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، وهذا غير هذا الوجه الذي دلت منه على ربوبيته.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع متعددة، إذ هو أجل العلم الإلهي وأشرفه، وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم، والله أعلم.[1]

---

(١) وبهذا انتهى الكتاب والتعليق عليه بمنة الله تعالى وفضله، ولطفه وتوفيقه، فله سبحانه وتعالى الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ونسأله سبحانه أن يديم علينا فضله وإحسانه، ويتغمدنا بواسع رحمته وغفرانه، إنه جواد كريم.

أبو عبد الله

الفهرس